عيّاش

أحمد مجدي همّام

رواية

دار الساقي

عيّاش

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

أحمد مجدي همّام

عيّاش

دار الساقي

آفاق AFAC

© دار الساقي 2017
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2017

ISBN 978-6-14425-941-2

تمّ نشر هذا الكتاب بالتعاون بين

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033-6114
هاتف: 442 866 1-961+، فاكس: 443 866 1-961+
email: info@daralsaqi.com

الصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)
شارع سرسق، بناية شارل عون، درج مار نقولا، جميزة، بيروت، لبنان
صندوق بريد: بيروت 13-5290، لبنان
هاتف: 901-218-1-961+
email: info@arabculturefund.org
www.arabculturefund.org

فازت هذه الرواية بمنحة آفاق ضمن برنامج "آفاق لكتابة الرواية"، الدورة الثانية، بإشراف الروائي جبور الدويهي.

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

إلى سارة وصفي[1]

هل أنتِ في السماء الآن، تتقافزين من غيمة إلى غيمة، تبحثين عن تلك التي ستنهمر بالمطر على رأسي؟

تعالي يا عمري، ظلّليني... تعالي وسأشربكِ دفعةً واحدة، أو سأحتفظ بكِ في زجاجة، وأضعكِ في مكتبتي.

وعندما يسألني الناس، سأقول: هذه حبيبتي. هزمت الموت، وجاءت لتسقيني.

---

1 (1985 – 2016)

شخصيات هذه الرواية وأحداثها من نسج الخيال، وأي تشابه بين الشخصيات والأحداث مع الواقع، هو من باب الصدفة البحتة، وخالٍ من الغرض والقصد.

"هي الحياة كما شاهدتها دولٌ من سرّه زمنٌ ساءته أزمانُ"
أبو البقاء الرّندي

"السماء تتجوّر وتطلق ممرّاتها وطرقها الهوائية
والليل يهتزّ كبحر ملفوف بالجلاتين
نأخذ الوقت بجرعاتٍ كبيرة
تنخفض الأرض ويبرد اليوم
بينما تتحرّك الأرض بملّاحيها المنوّمين"
نأخذ الوقت بجرعاتٍ كبيرة، عبّاس بيضون

"الواجب الأوّل عند الاستيقاظ من النوم هو الخجل من الذات"
لو كان آدم سعيداً، إميل سيوران

(0)

عزفٌ منفردٌ قبل البداية

الهروب من عجميستا

—1—

هبوني أموالكم... أهبكم روحي

جحيم في الدنيا، جحيم في الآخرة، شكراً يا رب، شكراً على هذا الحضيض الذي أعيش فيه... قبل مائتين وخمسين سنةً كان جدّي ملكاً... ملكاً حقيقياً له مِنسأة صولجانية وعمّة ضخمة وعباءة منسوجة من سَقْط تسعة حملان، وكان نفوذه يمتد من قرى شمال الصعيد عند بني سويف والمنيا، وينتهي في أسوان، واسمه كاملاً همّام ولد يوسف بن أحمد بن محمد بن همّام بن أبو صُبيح سيبك، والملقب بشيخ العرب همّام، الجنابُ الأجلّ والجناح الأظلّ، عظيم الصعيد وفارس هوّارة والذي خسر ملكه بعد أن هزمه علي بك الكبير وتوفي منفياً عن عاصمة مملكته فرشوط، في العام 1769م لينفرط عقد آل همّام من بعده فروعاً مبعثرة في أرجاء البلاد، ولأدفع أنا الثمن وحدي، فبدلاً من أن أغدو برنساً يافعاً في مقتبل العمر، يفقه في الإتيكيت والفروسية والشعر، صرت واحداً من عامة الناس، مجرد واحد آخر، في

فرع عيّاش الفقير من بني همّام، كاتب مغمور وشحيح الإنتاج لا يملك من أمره إلا أن يجاري الدنيا ويلاعبها بالأوراق التي في يده.

أترك القلم الذي تعرّق في يدي، أسحب نَفَساً من سيجارة ملفوفة كادت تنطفئ، أفكّر في الأوراق التي بين يدي والتي سألاعب بها الحياة، لا أجد سوى ورق الدشت وورق البفرة. أتذكّر محفظتي، أفتحها فأجد آخر عشرة جنيهات، أقول في بالي: "أوراق لا تكفي لملاعبة الحياة أكثر من نصف يوم". أنزل وأشتري سجائر فرط وطعميّة ساخنة ورغيفين، أحتفظ بثلاثة جنيهات أجرة المواصلات للغد، أتجاهل تساؤلاً يدوّي في رأسي عن كيف سأتدبّر أمري حتى بداية الشهر المقبل؟ غصّة تتصاعد عبر بلعومي وتقف في آخر حلقي، أسرع في المضغ لأظفر بمذاق الطعميّة قبل أن تختلط بالحزن. تنحشر كتلة في حلقي. أجرع بعض الماء. أتنفّس بعمق. أقوم وأطسّ وجهي بماء بارد من حنفيّة المطبخ، أترك رغيف الطعميّة، أفتح اللابتوب الذي تخلّعت أزراره، أجد رسالة إلكترونية من صديق جزائري يطلب مني كتابة مقال لجريدة الحزب الحاكم عن اليوبيل الذهبي لاستقلال الجزائر. جاء الفرج، وفي عزّ الظلام، هكذا فكّرت. أسأله:

– لله والوطن؟

– لا تنس أن المقال سينشر في جريدة الحزب الحاكم. تفهمني طبعاً يا صديقي.

أفهمك بالتأكيد يا ابن الحرام. أفهم جيداً أن خزائن الأرض ومفاتيحها في كروشكم، وأنا مستعد لكتابة مُعلّقتي في الرياء. فقط أروني يوروهاتكم، هبوني أموالكم أهبكم روحي، هكذا قال تشارلز بوكوفسكي في إحدى ندواته، وهكذا أفكّر أن أكتب لصديقي الجزائري، إلا أنني أحجم، بل وأخجل من تكرار سؤالي عن المقابل المادي.

في المساء أنهي كتابة مقال بعنوان "الورد اللي فتّح في جناين الجزائر"، جاء فيه:

... لفرحتي بهذه الذكرى أسباب وأسباب، فأنا كمصري، أعرف بدقة تفاصيل التاريخ المشترك العريض الذي جمع الوطنين في تحالف سريّ ومعلن في آن، فبخلاف المساهمة المصرية الموثّقة تضامناً مع ثورة الشعب الجزائري في مطالبته بحقه لتقرير المصير، جاء الرد الجزائري السخي، الفيّاض، ففي أيام 9، و10 و11 أكتوبر 1973 وصلت للأراضي المصرية الأسراب الجزائرية سوخوي 7 وميغ 17 وميغ 21، إضافة إلى إيداع 200 مليون دولار مناصفة بين مصر وسوريا من طرف الحكومة الجزائرية. لهذا التاريخ من الدم والكفاح المشترك، يطربني أن أشارك الجزائريين بهجتهم بيومهم الوطني. ويطربني أكثر أن أرى سحابة الصيف التي رافقت مباراة الكرة إيّاها وقد مضت لحال سبيلها، تلك اللحظة المسيئة للطرفين والتي ثبت أنها لم ترتقِ لدرجة تلويث التاريخ المشترك بين الشعبين. ومن هنا أكرر: مبروك للشعب الجزائري تحرّره المستمر حتى اللحظة، والمتواصل، إلى يوم يبعثون، بمشيئة المولى ثم برصانة القيادة الجزائرية ووعي الشعب الثائر والمكافح.

خمسون عاماً انقضت منذ رحيل المستعمر الفرنسي عن الجزائر بعد ملحمة خرافية سطّرها الشعب الجزائري بكل عناصره، محققاً ثورة ستظل إلى الأبد وفقاً للأرقام ووفقاً لشواهد القبور، وأشلاء المجاهدين، وفقاً لكل ما يمكن أن تقاس به الثورات، ستظل الأكبر على مستوى العالم. خمسون عاماً لا يحكم فيهم الجزائر إلا جزائريون، وهذا في حد ذاته أمر طبيعي في عصر مابعد الكولونيالية، لكن الجميل بالفعل، هو

أن يكون ذلك الحكم، سليل جبهة التحرير الوطني الجزائرية، تلك المنظومة الخالدة في التاريخ التي أعطت الكثير، الكثير فعلاً ودون أي نوع من التجميل، وهذا مفهوم قياساً بعدد المنتسبين للجبهة الذي وصل إلى 180000 مواطن في تلك الفترة التي لم يتجاوز فيها عدد المقيدين الذين أتيح لهم التصويت في استفتاء الاستقلال (اتفاق إيفيان) قرابة ستة ملايين فرد.

أراجع المقال، أضبط الفواصل والهمزات والحروف المنزلقة فوق لعابي الذي سال، أضع خطّاً تحت العنوان الذي اخترته، أكتب اسمي فوق المقال مع هامش سفلي مكتوب فيه (صحفي وروائي مصري). أرفع المقال ثم أرسله.

بعد أيام أتّجه للبنك لأتسلّم حوالة بقيمة سبعين يورو.

—2—

رصيد من الأصفار

جدّي عيّاش كان يقول: "الدولار عملة أهل الجنّة"، فاته رحمه الله عصر توهّج الاتحاد الأوروبي. أفكر في ذلك وأنا في طريقي للعمل، السبعون يورو ستشكّل غطاءً مادياً لأسبوعين إن لم تحدث أية أمور طارئة، وهي الفترة التي تفصلني عن قبض المرتّب. الشركة التي أعمل فيها تنشط في مجال استيراد الكيماويات، شركة صغيرة لا يوجد فيها غيري أنا والدكتور شريف العجماوي، المالك.

صديقي الذي دلّني على فرصة العمل عند الدكتور العجماوي – أو عجميستا كما صرت أناديه بيني وبين نفسي – لم يخبرني، والأمر لم يكن يحتاج لخبريّة، اكتشفت منذ اللقاء الأوّل أنه مثليّ. كل شيء كان يشي بذلك، مشيته، علكته، نظراته، وحتى بريده الإلكتروني الذي صرت مسؤولاً عن متابعته لم يخلُ من رسائل من مواقع تدعوه للدفع من بطاقته الائتمانية لاختيار شركاء ذكور للفراش. لحُسن الحظ لم أكن مثيراً بالنسبة له، عجميستا لا يحب البدناء، ولا يحب الشعر الناعم. عجميستا كان يصطحب معه للمكتب عمّال بناء وعتّالين وحرفيين وفلاحين بعروق نافرة وصدوغ مربعة ورائحة عَرَق فوّاحة – ومُهيّجة بالنسبة له – ثم كان يصرفني بمنتهى اللطف: "تقدر تروّح يا عمُّور". أذكر مرة أنني هاتفته

لأتأكد من أن الغد، السابع من يناير، عيد الميلاد المجيد، إجازة. عجميستا رفض وقال إننا لسنا نصارى لنؤجّز، وأجبرني على ترك السهرة مع الأصدقاء لأروّح وأخلد للنوم استعداداً ليوم جديد من العمل. وفي اليوم التالي، وبعد ساعتين من بدء العمل، دخل إلى المكتب، بابتسامة نيئة، وبخدين متورّدين، يتبعه شاب يفيض بالصحة. منحني يومها إذناً مجانياً بالانصراف المبكر. في نفس اليوم قرّرت أنه يجب أن أجد وظيفة أخرى.

الدكتور عجميستا ليس موجوداً اليوم، ذهب في رحلة عمل خارج العاصمة، وأنا بعدما أنهيت المراسلات كافّة، أفتح صفحة وورد وأواصل الكتابة:

> في الصف الثاني الإعدادي، في إحدى حصص الرياضة، وفي جانب منزوٍ من ساحة الألعاب، دون مقدّمات، كشف لي زميلي مروان عن زغب أسود خفيف يتوسطه زب يناهز الشبر، ومنذ ذلك اليوم وثقتي في رجولتي مطعونة. أخاف من العجز، والفشل والتقصير، حتى بعدما كبرت وتغيّرت أبعاد جسمي، بقي ذلك الشبر المتدلّي من بين فخذي مروان بمثابة طعنة في نفسي. ندبة في ثقافتي الجنسية النظرية المحدودة، جعلتني أخشى الاحتكاك بجنس النساء من بابه. عجميستا اللوّاط أجدع مني، يعرف مايريده ويفعله، هو يحب أن يؤتى من دبره من واحد مثل مروان، ويفعل ذلك بمنتهى الإخلاص، أما أنا...

تعاودني الغصّة مرة أخرى. تدهمني فكرة مفادها أن الله خلق كل إنسان وفوق كتفيه صندوق لتخزين الأحزان، صندوق اسمه الذاكرة، والغريب أن هذه الذاكرة لا تحتفظ إلا بكل ما هو سامّ! ثم تطفح تلك السموم على ما أكتبه! أغلق صفحة الوورد، وفي سرّي ألعن دين أم عجميستا على مروان.

لست راضياً عما كتبته، لست راضياً عن كتابتي بشكل عام، لماذا تحمل

كتابتي رائحة القيء؟ لماذا أكتب أصلاً؟

قبل خمس سنوات، أصدرت كتابي الثاني والأخير، ومذّاك، وأنا أفعل كل شيء وأيّ شيء، إلا الانتهاء من كتابة نص يقنعني. في البداية كنت أشخبط نصوصاً قصيرة، مدفوعاً بالقصور الذاتي للدفقة الوجدانية لكتابي الثاني والأخير، إلا أن تلك النصوص لم تكن مقنعة بالنسبة لي، وكنت أحرص على التخلص من مخطوطاتها أولاً بأول، لكيلا يأتي يوم ويقفش أحدهم عليّ نصوصاً ضعيفة وبدائية. لكن بمرور الوقت وجدت نفسي مشغولاً بالعمل في النهار، والتسكّع في وسط البلد ليلاً مثل أي روائي مغمور. فتنتني أجواء مقاهي المثقفين والبارات والمكتبات والمباني العتيقة ذات الطُرُز الغربية، وصرتُ حريصاً على أن ألتقي بأبناء جيلي من الكتّاب، والتعرف على الفنانين الشبّان المغمورين، نلفُّ السجائر في الشوارع الجانبية المظلمة، وأمشي معهم كتفاً بكتف في مسيرات صامتة بالشموع على أرواح أناس لا أعرفهم. كنت خاضعاً تماماً لسطوة ذلك المكان، بخصوصيته وعجائبية أفراده، وشبكة العلاقات الديناميكية التي لا تكفّ عن الدوران الهيستيري: أعرف واحدة نامت مع أحد عشر كاتباً كلهم أصدقائي، وتحرّشت بي شخصياً لكني خفت كالعادة.

في غفلة مني فوجئت بانقضاء ثلاث سنوات وأنا أعيش مثل تيس مربوط في ساقية، أشتغل بالنهار، وأصرف فلوسي في بارات ومقاهي وسط البلد بالليل، ولا أكتب حرفاً، حتى فرصتي لاقتحام مجال الصحافة تركتها تمر بهدوء ولامبالاة، إذ كنت أراسل بين الحين والآخر صحفاً ثقافية عربية ومصرية، إلا أن تلك المراسلات تقلّصت بالوقت حتى انتهت إلى صفر آخر يضاف لرصيدي من الأصفار. أنا خرجتُ من وسط البلد بثلاث سنوات مفقودة، وبأطنان من النميمة عن دوائر الأدباء والفنانين، المشهور منهم والمغمور.

—3—

تسلّخات نفسية

في القهوة تحت البيت أطلب شاياً سُكّر زيادة، مصطفى القهوجي الصعيدي يبتسم وهو يضع يده على كرشي. يقترح: "خلّيها شاي أخضر يا فنّان، أنا عامل على مصلحتك" ثم يقهقه ليلفحني بأبخرة كريهة من حنكه. يضحك بعض رواد المقهى، أرتبك، أرفع يده عن بطني ثم أرد:

– دا عزّ يا بني آدم، واحد زيّك لو شخ يجوع.

يقهقه مجدداً، باردٌ وسمج. أفكّر، متأهّباً لردّه في لعبة القافية التي يعشقها المصريون:

– دي سمنة وانتا الصادق، طب بذمتك بتعرف تشوف بتاعك؟

أنتفض من داخلي، تومض صورة مروان في ذهني. يختلج خدّي وأشعر بالهزيمة. أقول لمصطفى: "هات الشاي وماتشغلش بالك ببتاعي يا خَوَل". ينصرف وهو يواصل مشاكسة الزبائن، أنكمش أنا في نفسي، أفتح الأجندة وأسحب القلم من جيبي وأكتب وسط ضوضاء المقهى:

مَن هؤلاء القبيحون ذوو الروائح النتنَة المحيطون بي؟ وهل يرونني قذراً مثلما أراهم كالجَلَخ الذي يسد مسام البشرة؟ للأسف يضطر

الواحد منّا للخروج من غرفته، هذه حقيقة إحصائية، بل ويضطر لفعل ذلك بشكل يومي تقريباً، لقضاء مصلحة، أو للترفيه عن نفسه، أو بهدف جني بعض الأموال، فيواجه مستنقع الخراء الذي يسبح فيه البشر، ثم إنه يعود لغرفته بحفنة جنيهات، وبالكثير من التسلّخات النفسية من الدرجة الأولى، بسبب الاحتكاك المباشر مع المسوخ والكائنات الشائهة المنتشرة في الشوارع...

ينقطع تسلسل أفكاري عندما يضع مصطفى الشاي وينصرف، أشفط رشفة ثم أقرأ ما كتبته؛ أنا أيضاً لا شيء يعجبني يا محمود درويش، لا شيء على الإطلاق، كل ما أكتبه منذ سنوات ينتهي إلى نفس الحال: ملفات وورد متناثرة في جميع أرجاء الهارد، أوراق مبعثرة في أجندات مبعثرة هي الأخرى في غرفة المبعثَر الأكبر. أفكّر في تمزيق الورقة، إلا أنني أحجم، لا ضير من الاحتفاظ بورقة أخرى توثّق خيبتي الكبيرة. أبقي عليها وأنا لا أعرف إن كانت مطلع رواية جديدة لن تكتمل أم مجرّد بكائية، لكني في النهاية أتركها لتعيش. أنهي الشاي في شفطات قليلة، وقبل أن أنصرف، أحاسب مصطفى على المشاريب بابتسامة هادئة، بينما في مخيّلتي أقتله سَبع مرّات بطرق مختلفة.

***

أقول لنفسي إن جولة سريعة في فضاء الإنترنت أمرٌ حيوي قبل النوم، جولة تفتح المجال لأحلام متنوعة، وتبقيني على اتصال بعالم الأدب والأدباء بعدما أقلعت عن ارتياد وسط البلد بمكتباتها وندواتها وباراتها. في بداية رحلتي الافتراضية أرسل سيرتي الذاتية لصحيفة تطلب محررين شبّاناً. بعدها، يدهمني، بل يصعقني خبر عن قيام نجمة البرامج الواقعية كيم كارداشيان بالتأمين على مؤخّرتها بواحد وعشرين مليون دولار. يقول نص الخبر: "كشفت تقارير إعلامية أن النجمة الأميركية كيم كارداشيان أمّنت على مؤخّرتها بمبلغ 21 مليون دولار، ونقلت

مصادر مقربة عن كارداشيان لمجلة "غرازيا" أن شريكها ووالد طفلتها كاني وست رأى أن مؤخّرتها هي أهم ما تمتلكه فنصحها بضرورة التأمين عليها. وتشتهر الفاتنة ذات الأصول الأرمينية بتضاريس جسدها الممتلئة والتي نقلتها إلى عالم الشهرة بسرعة صاروخية، إلى جانب أفراد عائلتها الكبيرة، الذين يطلّون على شاشات التلفزة الأميركية عاماً بعد الآخر. وغالباً ما تتحدّث كيم بفخر عن تضاريسها ولا تتوانى في المباهاة بجسدها عند كل إطلالة إعلامية، وسبق لها أن قالت عن مؤخّرتها في تصريحات متلفزة: "أستغرب كيف أن العالم مهووس بمؤخّرتي، ولكني أتقبل الموضوع وأعتبره نوعاً من الإطراء". تجدر الإشارة إلى أن كارداشيان ليست أول من يؤمّن على أجزاء من جسده، إذ سبقها نجم كرة القدم الإنجليزية ديفيد بيكهام في 2006 وأمّن على جسده بمبلغ 100 مليون جنيه إسترليني".

انتهى الخبر.

أفكّر في أن أطفئ السيجارة في حَدَقة عيني، أو في لساني. أحملق في السقف وأتخيّلني وأنا أقف وسط اللاعبين الإنجليز لأسدّد ركلة حرّة مباشرة في الوقت بدل الضائع. ومضات الفلاشات القادمة من المدرجات تشوش رؤيتي، بينما في الأعلى تشير اللوحة الإلكترونية لتعادل سلبي بين إنجلترا وألمانيا، أتقدّم لتسديد الكرة، العالم يحبس أنفاسه، أضع عصارة مهارتي في التسديدة، تتهادى الكرة من فوق الحائط البشري وتسبق يد الحارس لتسكن في المقص، بالضبط في المقص. الجمهور يزأر سعادةً ويتغنّى باسمي: "بوم بوم بوم أومار أيّاش"، بينما يُقبّل زملائي حذائي. مواصلاً التحديق في السقف أقول لنفسي: "بيكهام أسعد الإنجليز كلهم، وطوّر موهبته واجتهد وتدرب وسافر مع فريقه وأحرز البطولات والأهداف وتعرّض لإصابات خطيرة أبعدته طويلاً عن الملاعب، هو بالفعل كنز بالنسبة لفريقه. أما الفاتنة كارداشيان! عجبي عليك يا زمن يابو البِدَع يا مْبكّي عيني دماً. من عبث الحياة ولا جدواها أن تصبح إنسانة ما واحدة من أشهر مشاهير الكوكب، وأغناهم، فقط لأن مؤخّرتها كبيرة، أكبر من المتعارف

عليه، كبيرة ومتناسقة والعالم كله يشتهي دفس قضيبه الكوكبي في إستها، وأنا أشتهي معهم، لأنعجن في سوائل رطبة ولزجة ومهيّجة. أليس الحال كذلك مع السيدة الفاضلة كارداشيان؟ يحدث ذلك في الوقت الذي أمسح فيه خراء شريف العجماوي، بمنتهى التسامح والرضا، بل وبشهية مفتوحة، لأحظى بقليل من الجنيهات!

في اللحظة التي أدرك فيها أن حجم المؤخرّة يفرق في المستوى المعيشي والتراتبية الاجتماعية لبني آدم، أودُّ لو أصرخ في العالم عبر شبّاك غرفتي: وأنا أيضاً طيزي كبيرة، لكنها كبيرة بفعل السمنة!

—4—

ديون قديمة

أما آن لهذا الضنك أن ينتهي؟ ألم يحن الوقت الذي يتوجّب فيه على شريف العجماوي أن يرفع راتبي؟ أقول في نفسي وأنا أحاول حلّ معضلة: كيف أجعل المئة جنيه المتبقية معي، تكفيني لأسبوع!

في الطريق للشغل أفكّر في مدخل أفاتح به عجميستا في موضوع زيادة الراتب، منذ سنة ونصف أعمل معه، من حقّي أن أترقّى، هذا نظام العمل في القطاعين العام والخاص على حدٍ سواء. أقول لنفسي مشجّعاً.

عند العصر يصل الدكتور، يتناول غداءه ثم يستدعيني لنراجع بعض الأمور المتعلّقة بالعمل، أحاسبه على فاتورة التليفون عن آخر ثلاثة أشهر. قبل أن يصرفني أقول له:

– دكتور هو حضرتك مش ناوي بقا تدّيني زقّة كدا في المرتب ولا إيه، دا عدّا عليّا تسعطاشر شهر شغّال مع حضرتك؟

مع حرف الكاف الأخير في سؤالي، يثقبني العجماوي بنظرة ازدراء مخلوطة بدهشة، يسحب سيجارة رفيعة من علبته السليمز، يشعلها وهو يهز رأسه كأنما يتعجّب. يسحب نفساً وينفثه ببطء من منخريه بينما ينقر بوسطاه على اللوح

الزجاجي الذي يغطّي مكتبه. يبدو شارداً، أتمنّى أن ينطق، أعصابي تتلف بينما أحضّر جمُلاً إلحاحية أحكمت تركيبها في سياقاتٍ من التذلُّل وأقمت عليها بروفات عدّة. أخيراً يقول الدكتور:

– انتا فاكر شحنة الإم إم إيه اللي كانت رايحة لأرامكو وانتا بعتّ الورق بتاعها لعميل تاني؟

ينعقد لساني، أومئ إيجاباً برأسي. يفتح العجماوي دُرْجاً، يضع آلة حاسبة ضخمة أمامه، يدعوني للاستدارة حول المكتب والوقوف جانبه، يواصل:

– دول لو تفتكر كانوا كونتينرين الواحد منهم خمسطاشر طن وكسور. الطن الواحد بتلات آلاف وربعمية دولار، يعني الشحنة كلها كانت عاملة 103360 دولار.

تنبت حبّات العرق على جبهتي وأنفي. أذكر تلك الواقعة بالتفصيل، خطأ ساذج، إيميل بدلاً من إيميل، سنتيمتر واحد يسار الهدف. الشركة التي وصلتها رسالتي عن طريق الخطأ أرسلت لنا لتوضّح أنها لم تطلب منا كموزّع أية شحنات، الشركة الأخرى صاحبة الطلب بعد أن عثرت على موزع يعمل لحساب شركات صينية ويبيع نفس المنتج بسعر أرخص، ألغت الصفقة بناءً على شرط جزائي يخوّلها ذلك إذا لم نلتزم بمواعيدنا. أقول لنفسي: "اتقِ شر اللوطي إذا غضب". يواصل العجماوي حديثه بينما يتكتك على الآلة الحاسبة:

– أنا نسبتي في الشحنة دي كانت 7% يعني حسبة 7235,2 دولار، ودول في وقتها كانوا يعملوا حوالي أربعين ألف جنيه.

يعيد الدكتور الآلة الحاسبة إلى الدرج، في دخيلتي ألحُّ على نفسي أن تتماسك، بينما يواصل العجماوي جلدي:

– أنا يا عُمر عمري ما طلبت منك المبلغ دا لأني عارف إنه مش معاك، ولا مشّيتك لأني عارف إنك أمين وإنها غلطة، الأربعين ألف دول يا عمّوري هما الزيادة في المرتب اللي انتا طلبتها، زيادة تكفّيك عشر سنين قدّام. إيه رأيك؟

لا أتلعثم، الضربة الفنية القاضية أنهت النزال قبل أن تنقضي الجولة الأولى،

خطّافية يسرى مثل لكمات تايسون التي تترك ضحاياها بعيون مبيضّة، ومفتوحة على السديم، لا يعرفون في أي مكان من ملكوت الله يعيشون. أي مناورة ستكون نوعاً من المكابرة الساذجة على طريقة "شيلوه من عليّا لأموّته"، لذلك أردّ وأنا أهزّ رأسي مثل ناقة تلوك التبن:

- تمام يا دكتور.
- تقدر تتفضل.
- بعد إذن حضرتك.

—5—

عطايا بطّة

شقّتي معتمة، والعتمة أساساً نعمة أُسيء تفسيرها. لغاية سنة فاتت، كان هذا البيت ينضح بالحياة، أبي بسنواته الستين وخفّة دمه، وأمي ذات الأصول الريفية، الأشبه بأمينة سيدها السيد وإن بصيغة عصرية نسبياً، وأنا. وقبلها بسنتين كانت أختي، لكن سبحان من له الدوام، تزوّجت بطّة وسافرت مع زوجها إلى أميركا، ومات أبي، لن أقول فجأة دون مقدّمات، بل بمقدّمات، مقدّمات استغرقت سنة ونصف. في البدء احتاج لقسطرة في القلب، ثم جراحة القلب المفتوح بعدها بعشرة أشهر، ثم أصيب بمرض في الرئة، وأخذت رئتاه تتليّفان ببطء وعلى امتداد أربعة أشهر، حتى تعطّلت وظائفهما تماماً، ودخل في غيبوبة، ووُضِع على أجهزة التنفس الصناعي لأسبوعين، قبل أن تفرز رئتاه السموم بفعل التليّف، ليتعطّل الكبد، وفي النهاية توقّف قلبه، ومات إكلينيكياً لمدة ثلاثة أيام، قبل أن يفنى تماماً.

بقيت أنا وأمي في البيت. وبعد سبعة أشهر من رحيل أبي، كانت أختي قد رتّبت لاصطحاب أمي إلى أميركا لتعيش معها، حصلت على فيزا الخمس سنوات التي تسمح لها بالتواجد لمدة ستة أشهر متواصلة تقضيها أمي في أميركا،

ثم تقوم بزيارة إلى مصر لأسبوعين أو ثلاثة، قبل أن تطير مجدداً إلى هناك لتقضي شهورها الستة المنصوص عليها في الفيزا.

في غرفتي أجلس إلى مكتبي، وأجهّز قائمة بالصحف المصرية والعربية التي يمكنني أن أراسلها: تلك التي يتولّى بعض معارفي الإشراف على صفحات الثقافة فيها، أو المواقع الإلكترونية الجديدة التي لا تزال تجمّع فرق العمل والمراسلين، وصحف ومجلات وزارة الثقافة... أرصد واحداً وعشرين عنواناً بشكل مبدئي، أدوّن إيميلاتهم وأرقام هواتفهم. بعد ما قاله شريف العجماوي صار لزاماً عليّ أن أؤمن ظهري، هذا الرجل ينوي التخلّص مني. أخمّن. هو فقط ينتظر ظهور مرشح آخر، يحمل صفاتي الثلاث: جامعي يستطيع التفاهم بالإنجليزية. يتقاضى ملاليم. ويفعل كل ما يُطلب منه: ينظّف المرحاض ويعدّ الشاي بنفس المستوى الذي يرد به على المراسلات والطلبيات، ويقول للضيوف بنبرة أنيقة: "تحب تشرب إيه سعادتك؟".

لكني لن أمنحه ما يريد بسهولة، لاعبني وألاعبك يا شريف، ولنرَ من منا سيكسر أصابع الآخر.

***

تغرقني أختي الصغيرة بهداياها، جلبت لي من أميركا أكياساً مكدّسة، مدد يا بطّة مدد، أطلق زغرودة في جوفي، وأنا أكرر كلمات الشكر مع لازمة "كل دا يا فاطمة والله مكنش له أي لزوم"، بينما في بالي أولّف طاقماً متناسقاً من هداياها، حذاء أديداس رياضي أسود، بنطلون جبردين بني، بلوفر مقلّم سمبوكسات...

قبل موت أبي بسنة تقريباً، سافرت أختي مع زوجها لأميركا، وأنجبت ابنها الذي أخذ سمرة أبيه، وشعرها الناعم، طفل ملائكي الملامح شيطاني الشقاوة. زوج أختي يعمل في مركز مرموق بشركة جوجل، وقد استقرا في الولايات المتحدة قبل ثلاث سنوات، لم يأخذا سوى إجازة وحيدة حضرا فيها دفن أبي وعزاءه.

أختي حذّرتني كثيراً من أن أضع ما تبقى من ميراثي في مشروع للاتجار في مواد البناء عن طريق شريكٍ لخالي. الرجل وعدني بمكاسب تصل لضعف الأصل خلال ستة أشهر، وأنا خفت في البداية ووقفت على مقربة لأتابع أخوالي وهم يجنون مكاسب خرافية، عندها أقدمت، ووضعت المبلغ كله وقلت لنفسي: ومن يتهيّب صعود الجبال، يعش أبد الدهر بين الحفر. لم أكن أعلم أني أحفر لنفسي حفرتي الأكبر، لأن شريك خالي اختفى فجأةً، اختفى بجدّ وكأنما لبس طاقية الإخفا، وتركني عارياً إلا من أثاث الشقة، وترك خالي غارقاً في ديونه. ورغم أنها حذّرتني، إلا أن أختي الصغيرة عندما عرفت بنكبة أخيها الأبله، الذي وضع البيض كله في سلة واحدة ورماها في البحر، لم تبخل عليّ بأي شيء، اعتبرتني من جملة التركة، كنت من نصيبها تقريباً، ولذلك ستحرص بدءاً من هذه الزيارة فصاعداً على ترميم خسائري. بطة زوّدتني بالكثير من الملابس والأحذية والمحافظ والساعات، وأنا دوماً كنت أتساءل عن سرّ المحافظ والساعات الكثيرة التي تشتريها لي، ولاحقاً أدركت الحكمة المخبوءة، عندما مررت بضائقة مالية معتادة، بعت على إثرها محفظة تيمبرلاند جلد أصلي بلون الكونياك. ومنذ ذلك اليوم وأنا أخزّن في دولابي محفظتين أو ساعة أو زجاجة عطر أصلية، أعرضها للبيع بأقل من أسعارها الأصلية، لأفكّ زنقتي.

—6—

شعرة من جلد الخنزير

في قائمتي ستّ صحف محلية، وخمس عشرة صحيفة عربية، وسبعة مواقع إلكترونية. أجلس وحيداً في الشركة، أستخدم خط التليفون الدولي وأبدأ في إجراء سلسلة اتصالات: الإمارات، السعودية، الكويت، قطر، الأردن، لبنان، تونس، المغرب، سويسرا، فرنسا، إنجلترا، أطلب مهاتفة أي مسؤول في التحرير وأقدّم نفسي ثم أعرض خدماتي: عُمر عيّاش، صحفي ثقافي، أغطّي الندوات والمؤتمرات والأمسيات، أحاور الفنانين والأدباء، أكتب قصصاً – أو هكذا أزعم – أجري تحقيقات واستطلاعات عميقة ومعقّدة أو تافهة وتجارية، بوسعي أن أكتب عن روايات الميتاليتراتورا كما أستطيع أن أكتب عن فضائح موظفي وزارة الثقافة، قرّب جرّب، صحفي ثقافي وفنّي أكتب عن مسلسلات رمضان وأفلام المواسم والمهرجانات، كما أكتب عن جاليريات الفن التشكيلي وعروض المسرح... أعرض بضاعتي، ولا من مشترٍ. معظم من يردّون عليّ يطلبون نماذجَ من كتابتي، الصحفية وغير الصحفية، وأنا جاهز بهذا الطلب، وبسيرة ذاتية بسيطة مرفقة معها صورة شخصية 6 × 4.

عندما أنتهي من إجراء مكالماتي الدولية، لا أشعر بأني شفيت غليلي من

عجميستا. أتصل بصديق يعمل في السعودية، بعد السلامات أطلب منه أن يرمي تليفونه على جنب ويواصل يومه بشكل عادي، وأترك العدّاد يعدّ، أقول لنفسي: "شعرة من جلد الخنزير مكسب"، بدأت اللعبة يا عجماوي الكلب.

***

ثلاثون يوماً، أربعون، ستون، تسعون، كل يوم وبنفس الدأب، أستغل معرفتي بجدول تحرّكات الدكتور، وأنجز كل المكالمات التي تلزمني. أجري حوارات صحفية بتليفون الشركة، أتصل بدور نشر لبنانية وإماراتية ومغربية للتفاوض حول إعادة طبع كتابي الأخير، وأحياناً أتصل بأختي في كاليفورنيا لأروي لها أحدث النكات التي سمعتها مؤخراً، تضحك أختي، راعيتي، حبيبتي، تطربني ضحكاتها الطيّبة، تقول:

– انتا مش ناوي تتجوّز بقا؟ ازهق يا أخي.

– مش ناوي أتجوز؟ قولي كلام معقول يا بطّوط دأنا بولّع م الطّفية.

– يا عم انوي انتا بس وربنا هيفتحها، انوي وملكش دعوة.

– وانتي هتتبنيني ولا إيه؟ فُكّك من جو الأمومة الفيّاضة دي. أقولك نكتة أحسن...

– يا عُمر لأ. حاول تتكلم جد شويّة، بُص، بصراحة بقا أنا بفكر أعمل لك مصروف شهري.

– مصروف إيه يا بطّة اهدي كدا وصلي ع النبي، أنا مش عايز أي فلوس، أنا بس عايزك تفضلي تبعتي لي محافظ حلوة من دي، وماتشيليش تيكيت السعر.

– عجبتك المحافظ؟

– آه. وعجبت أصحابي.

– قشطة.

***

قبل أسبوع من موعد دفع الفاتورة الجديدة لتليفون الشركة، أتقدم باستقالتي لعجميستا. يتفاجأ، وهذا أمر يسعدني. مكّنتني عشرات الاتصالات عبر تليفون المكتب، من تصفية القائمة إلى صحيفتين وموقع إلكتروني: واحدة مصرية، وأخرى لبنانية أفسحتا لي مجالاً للكتابة لحسابهما بالقطعة، وموقع ثقافي خليجي. يستبقيني العجماوي، فأرفض، يعرض زيادة راتبي، أرفض مجدداً، أزعم له أني عثرت على عمل جديد براتب لا يُرفض، يستسلم، يطلب مهلة ثلاثة أيام ريثما يرتّب أموره، أوافق؛ شريطة أن يدفع لي المستحق من راتبي عن الأيام التي قضيتها من الشهر الجاري، يقبل. أشعر بانتشاء المنتصر.

يسألني الدكتور عن الشركة الجديدة، أتلعثم، أشيح بنظري بعيداً وأقول إنها صحيفة عربية، يقول إنه يعرفها ويعرف صحفياً كبيراً يعمل فيها وسيوصيّه عليّ، أرتبك، أقول له "يا ريت"، ثم أنصرف إلى مكتبي، أفكّر: "هانت يا عجميستا الكلب، بكرة تجيلك الفاتورة وتشوف البعبوص أبو تايمر".

(1)

البداية

تحوّلات

—7—

نُورا I

في وسط البلد

أنزل من البيت. اليوم هو موعد مكافأتي الماديّة الأولى بعد عودتي للصحافة. أفكّر في الاحتفال بالشمس والبشر والحياة، وبالنصر الذي أحرزته على العجماوي، وقرار العودة إلى الصحافة الحرّة. أخمّن أن فاتورة التليفون فاقت العشرين ألف جنيه، أدندن بلحن لا أذكر من أي أغنية، أمشي بطول شارع فيصل خفيفاً بفعل السعادة، أعبر ميدان الجيزة والمنيل وكوبري عبّاس، أتذكّر الأغنية وأكرّر المقطع "ضرب الخناجر ولا حكم النذل فيّا". أنحرف يساراً من تحت كوبري الملك الصالح، وأواصل المشي عبر منطقة فُم الخليج، ثم أنحرف يميناً لأصل لشارع القصر العيني، ساعتان ونصف من الاحتفال الذي أفضى إلى ثآليل في كعب قدمي.

أقبض مكافأتي التي جاءت أكبر مما أتوقّع، بيني وبين نفسي أمتنّ للذوق اللبناني وقدرتهم على التثمين. أقرر المرور على وسط البلد لمواصلة الاحتفال. أنزّه نفسي وأستقل تاكسي حتى شارع هدى شعراوي. تحاوطني الذكريات مع

كل خطوة، بار ستيلّا على الناصية اليمنى للشارع، وكشك حسين على الناصية اليسرى. أمشي خطوات قليلة إلى الأمام فأجد عربية سندوتشات الكحلاوي على يميني، والشارع المفضي لمقهى زهرة البستان على يساري. أواصل التقدّم، حتى أصل إلى مقهى سوق الحميدية، هناك أراها، وأتذكّرها فوراً. كانت جالسة في الزاوية الداخلية تدخّن الشيشة وتعبث في هاتفها، فكّرت: هل أدخل وأسلّم عليها أم أتجاهلها وأواصل سيري إلى بار الحريّة؟ لكن عينيها تلتقطان عينيّ فجأة، تبتسم، أرتبك، إحساسٌ سخيف عندما ترفع نظرك فتجد أحدهم يحملق فيك. أتجاهل ذلك، وأقبل عليها مدفوعاً بدفء الفلوس في جيبي.

– ياه، عُمر عيّاش... والله زمان.

– عاش من شافك يا نُورا.

تفتح ذراعيها، فأحضنها، خجلاً من ارتطام صدري المترهل بصدرها. تضمّني نُورا، ونستغرق في حضن طويل، وكأن سنوات هجري لوسط البلد، أضيفت إلى رصيدنا، فصنعت منّا صديقين، مع أننا لم نكن كذلك أبداً. يتسرّب دفء جسدها بين ضلوعي، ويتسلّل عطر أنثوي مجهول إلى أنفي، تسري الدماء في عروقي وأشعر بها متّجهةً إلى نصفي السفلي. ما زالت نُورا في حضني لأسباب مجهولة، حاولت أن أشغل نفسي، فكّرت في أن بنت الجنيّة هذه تشغل الآن أربعة من حواسي: السمع والبصر واللمس والشم.

تفلتني نُورا بعد ثوانٍ، كان انتصابي على وشك الاكتمال. تأخذ خطوة للوراء وتنظر إليّ مليّاً كأنما تملأ عينيها منّي! فأشدّها لمقعدها، سريعاً، وأجلس في الكرسي المقابل، لأواري سوأتي.

***

الكثير من المني أرقته في السنين الخوالي، على نُورا. عشرات متعاقبة كانت من نصيبها، دون أن تلمسها قطرة واحدة من لبني.

في أحد أيام يناير 2011، كنّا قد هلكنا من اللف في الميدان والهتاف حتى

تشرّخت حناجرنا، وفي المساء قررنا أن نبيت قريباً من الميدان في انتظار الخطاب الذي أُشيع أن الرئيس سيلقيه على المتظاهرين. لذلك اتصل صديقنا محمود بصديق له يمتلك شقّة في شارع معروف، وطلب منه أن يسمح لنا بالمبيت فيها، والصديق المغترب اجتاحته مشاعر وطنية وشعر أن سماحه للمتظاهرين بالمبيت في شقته نوع من الفعل الثوري العابر للقارّات، سيساعده على التخلّص من وخز ضميره المعاتب على تفضيله البقاء في بلاد الدراهم عن العودة للوطن.

كنا أربعة، ووجدنا أنفسنا في شقّة بديكورات غربية ومطبخ أميركي مفتوح على الصالة. انطلق نور إلى المطبخ، فتّشه ثم خرج بعد فترة بأربع كوبايات شاي وبعض البسكويت، بينما فتحت نُورا التلفزيون واختارت قناة تبث بشكل مباشر من الميدان، محمود تجوّل في الشقة ووزّع الغرف علينا بما أنه صديق صاحب الشقة، وأنا، دخلت إلى الحمام وأخذت دشاً ساخناً.

بعد ساعتين كنا نقاوم النعاس والإرهاق، دخلت نُورا إلى الغرفة الأولى، محمود ونور تقاسما الغرفة الثانية، وأنا بقيت في الصالة وأطفأت الأنوار ثم تمدّدت على كنبة وثيرة من تلك التي تتحوّل إلى سرير.

لكني لم أنم.

كانت نُورا تهرشني، وتسيطر على أفكاري، حتى بعد أن علا شخير محمود. كنت أفكّر في تعارفنا الذي حدث قبل ساعات في الميدان، قدّمها لي نور على أنها شاعرة لم تنشر، وقدّمني لها على أني روائي واعد في رصيدي إصداران لم يسمع بهما أحد! لم أكن أعرف أين يكمن الخلل بالضبط، لكني اشتهيتها منذ الإطلالة الأولى، رغم أنها لم تكن جميلة أبداً، كانت عادية، بل تميل إلى الدمامة، لكنها شهيّة، وجذّابة، لم أكن أعرف ما إذا كان اشتهائي لها نابعاً من كبتي الطويل والأزلي، أم نابعاً منها ومن سيمتريّة ملامحها الفقيرة، وشموخ نهديها! لا أذكر تفاصيلَ كثيرةً، فقط تحضرني تلك اللحظة في الظلام، التي انفرج فيها باب الغرفة التي تشغلها مصدراً صريراً خافتاً، لتطل برأسها، تلفتت

مثل طفل يلعب الغُميضة، ثم أشارت لي باللحاق بها في غرفتها، تردّدت لكني تجاسرت ولحقت بها. كانت عارية في الظلام، وكنت منتصباً في الظلام أيضاً، وكان لقاؤنا هو الثورة نفسها. هَمَسَت بينما تمص أذني: "إنتا حلالي". لم أفهم قصدها بالتحديد، ولم يكن يعنيني ذلك. اعتليتها على العنقريب[1] الذي كانت ترقد عليه عارية، وامتزجنا في لحن ليلي خافت، تحرّكت فوقها بطريقة زنبركية وبإيقاع ثابت، بينما اكتفت هي بالفحيح بديلاً عن الصراخ الذي قد يوقظ نور ومحمود... كان كل ذلك خلسة، حتى الإشراق المفاجئ للشمس حدث خلسة، قبل أن أفتح عيني ببطء، لأجد نفسي على الكنبة الوثيرة في الصالة، وبقعة مني كبيرة تلطّخ سروالي وأحلامي، على حدٍ سواء.

***

أسألها عن عملها، تسحب نَفَساً طويلاً من الشيشة، تخرج حروفها ممزوجة بالدخان:

– كله تمام، محرّرة في موقع العالم دوت نت.

– ودول بيدفعوا كويس؟

تبتسم لسؤالي الساذج، تسحب نَفَساً آخر من الشيشة وتقول:

– كويس جداً. وانتا إيه أخبارك؟

أجد نفسي أحكي لها مشواري منذ هجرت وسط البلد والتحقت بالعمل عند العجماوي، مروراً بسنوات المهانة في تنظيف المرحاض وإنهاء المراسلات والتستّر على خوْلنة الدكتور. تقاطعني وتقول:

– كل واحد حرّ في طيزه.

أردّ:

– على راسي، لكن مايستعرصنيش.

1 سرير خشبي قصير وقريب من الأرض، منتشر في مصر والسودان.

أقصُّ عليها المناوشات التي دارت بيني وبينه، وموت أبي، وزواج أختي، ثم هجرة أمي للحاق بها في أقصى أقاصي الكوكب. وأخيراً أخبرها أني انتصرت في معركتي مع العجماوي، وأني أراسل عدة صحف عربية، وأن اليوم هو موعد استلام مكافأتي المادية الأولى بعد تحرّري من ربقة النير العجماوي. يطربها التعبير الأخير، تبارك لي تحرّري ثم تبتسم، تبهجني ابتسامتها، أدعوها، بسبب كل تلك الأحداث السعيدة لوجبة أرغفة حواوشي من مطعم القزّاز، توافق، وتتجه معي إلى المطعم الموجود في شارع صبري أبو عَلَم.

أثناء انتظارنا لتجهيز الأرغفة، تحكي لي عن زواجها القصير من صديق قديم يُدعى عبد الحكيم، تصعقني بخبر موته "أزمة قلبية كدالوحده". ثم تخبرني عن طفلتها ذات السنتين، والحجرة التي تسكنها في شقة صغيرة في حي السيدة، تقتسمها مع طالبتين جامعيتين، عهدت لإحداهما بالصغيرة لكي تستطيع التوجّه لوسط البلد.

***

طَفَشَت نُورا من بيت أهلها قبل أربع سنوات، لم تحتمل تحكّمات والدها الصول جابر. كانت تكتب الشعر، وتحلم بالعمل كمذيعة راديو، وتتمنّى أن تقضي شهر العسل في روما. الصول جابر كان يحمل خططاً مختلفة تماماً لبنته الكبرى، مثل تزويجها من ابن أخته أمين الشرطة، ورؤية فريق من الأحفاد توالي بنته زربهم بمعدّل طفل كل تسعة أشهر، أو عشرة على أسوأ تقدير. هذا التنافر أفضى لمناوشات وشجارات لانهائية، كانت نتيجتها أن طفشت نُورا، وخلعت الحجاب. تلطّمت في عدّة وظائف: مدقّقة لغوية في إحدى جرائد بير السلّم، محرّرة أدبية في دار نشر لم تطبع سوى كتابين، تايبيست في مكتب من مكاتب الملازم الدراسية المحيطة بالجامعة، لم تكن تجيد سوى الكتابة، الكتابة فقط، وبأيّ صيغة.

السنوات التي قضتها في وسط البلد سمحت لها بتكوين شبكة علاقات

متشعّبة. وصديقي نور، المغنّي المطمور في الشوارع الخلفية، كان جسراً بيننا، التقطها في إحدى حفلاته التي يقيمها في مركز ثقافي من تلك المنتشرة في وسط البلد. نور كان زير نساء، وموهبته في العزف على الجيتار مع ضفيرته الطويلة ولحيته الغزيرة والخرقة التي يضعها على رأسه – فتجعله شبيهاً بالقراصنة – كانت لا تترك مجالاً لأي بنت كي تقاومه، كان فعّالاً وسريعاً، لكن يبدو أن نُورا لم تعجبه، وضعها في الفريندزون، فبقيت هناك منكمشة على نفسها ومستكينة.

لم أرَ نُورا كثيراً بعد الليلة في شقة شارع معروف، وسرعان ما التحقتُ بالعمل عند الدكتور شريف العجماوي، وانسلخت من وسط البلد. ومن بعدها، تلاشت نُورا تماماً، وغصت أنا في حياتي وانشغلت بموت أبي وصراعي مع العجماوي والصحافة... ثم فجأة هأنا أجدها تقف أمامي وتأكل الحواوشي في شارع جانبي ومظلم في وسط البلد!

صدق من قال: الدنيا بحجم كسّ النّملة.

—8—

مراسم الاستعباد

فرملة مفاجئة تقطع سريان تيار الأفكار في رأسي، أرفع عيني عن شاشة الموبايل، وأستند بيدي اليسرى على ظهر المقعد المقابل. لا أزال في الباص، الركّاب يتشاجرون مع السائق الطائش ذي الأذن الواحدة، ويطالبونه بالقيادة بحرص. يتجاهلهم ويرفع صوت الكاسيت الذي يبث أغنية شعبية يتباهى مطربوها بأنفسهم وسط ألحان مبهمة وأصوات مشوّهة بتقنيات صوتية بدائية: "إحنا الديابة الستّة، قلنا مين اللي عليه الدور؟ ركّبنا العَوْ كارِتّة... وقّفنا النمل طابور". تطربني العنجهية البدائية التي يتشدّق بها الديابة الستّة. أفكّر في غرور الفنّان، العظماء والتافهون على حدٍ سواء تباهوا بأنفسهم وأشهروا غرورهم في وجه العالم، ولا أدلّ على ذلك من قول البحتري: "عليّ نظم القوافي من مقاطعها وما عليّ إن لم تفهم البقرُ".

ينقضي الطريق في تأملات شبيهة، حتى يصل الباص إلى منطقة كوبري الخشب، فأترجّل هناك، وأمضي في طريقي إلى شارع محيي الدين أبو العز، ومنه أنحرف يميناً إلى شارع مصدّق، عند البناية الشاهقة المقابلة للمطعم والبنك، أقف، وأتأمّل أفراد الأمن بأجهزتهم اللاسكلية وجثثهم الضخمة،

أتقدّم، يستوقفني فرد الأمن ويسألني:

– عندك معاد؟

أومئ برأسي، يطلب بطاقة الهوية فأسلمه إياها ثم أصعد السلالم بينما يحدّثني قلبي بأنني سأظفر بالوظيفة.

بعد أن أملأ استمارة طلب التوظيف، يسلّمني أحدهم موضوعاً عن عصابات تزوير الأوراق الرسمية، مادة أوّلية مُهلهلة ليست سوى إجابات أحد أفراد تلك العصابات عن أسئلة المحرر، مشتبكةً دون تنسيق مع إفادات ضابط من إدارة مكافحة التزوير. الأمر يبدو سهلاً، أفصل الكُتَل المعلوماتية، أرتّبها بشكّل يبدو لي منطقياً، أضيف عناوين جانبية في متن الموضوع، أضبط علامات الترقيم وأعالج الأخطاء الإملائية والنحوية، ثم أختار عنواناً ساخراً من نوعية "كيف تصبح ضابط صاعقة دون أن تدخل الكليّة الحربية؟" وأشفعه بعناوين شارحة تستخلص أبرز معلومات وأرقام المادة. وفي وقت قياسي، أسلّم الموضوع مرمَّماً إلى مدير التحرير، الذي يأخذني من يدي بعد أن يقرأ الموضوع، ويقدمني لمدير عام التحرير:

– أستاذ عُمر عيّاش... محرر الديسك الجديد معانا.

فأشكر الله في سرّي، وألعن شريف العجماوي كمان وكمان.

***

تتصل بطّة، دوماً هي من يتصل، تبشّرني بخبر حملها، تبدو مبتهجة لأنها ستحظى بمولودة كما يقول السونار، كانت تتمنى أن تنجب بنتاً على عكس السائد. تخبرني بطّة أيضاً بقدومها مع أمي المزمع بعد شهرين وأيام لحضور زفاف أخت زوجها، فأبتهج بقرب موعد رؤيتهما، أمي الطيّبة، وأختي التي ترعاني على بعد قارّة ومحيط، تتابع أخباري وتقيلني من عثراتي.

تستفسر بطّة:

– بطّلت تتصل بيّا ليه؟

- مابقاش عندي خط دولي أكلّمك منه. سبت الشغل في الشركة.

تقول بنبرة قلقة:

- إيه دا سبت الشغل؟ ودلوقتي مش شغّال؟

- لا طبعاً شغّال، بكتب في كام جريدة كدا.

- طيب وسبت الشغل ليه؟ انتا استقلت ولا همّا مشّوك؟

أتردد في الإجابة لثوانٍ، ثم أرد:

- الكلب اللي اسمه العجماوي رفدني عشان اتأخّرت كام مرة.

وفي رأسي أعتذر لها عن كذبتي، وهي من جانبها تهوّن عليّ الأمر، تحكي لي عن طرائف ابنها الذي يريد الزواج من الكلبة التي يقتنيها الجيران من فصيلة جولدن ريتريفر. تقول: "بيبوسها من بؤها"، تقول أيضاً: "والبنت اللي معاه في الحضانة وبتحبه، بيضربها"، وتقول: "وعايز يشتغل حرامي لما يكبر". تحاول بطّة بشتّى الطرق أن تسرّي عن أخيها العاطل المُفلس الكذّاب، وفي النهاية تفصح:

- ولا يهمك يا عُمر، بكرة تلاقي شغل. ولو احتجت أي حاجة قول.

تنهي المكالمة بتجديد وعدها بمساندتي، لا تقول ذلك مباشرة. إلا أنني بعد ساعة من المكالمة تصلني رسالة على هاتفي تطالبني بالتوجّه لأقرب فرع من فروع البنك المصري لاستلم حوالة بقيمة مائتي دولار. بعدها بدقائق يرن هاتفي، أرد عليها، تسأل بطّة:

- وصل؟

أجيب وأنا أكاد أسجد لصورتها المعلّقة في الصالة وهي بفستان الفرح:

- وصل يا برنسيسة. مواه.

- مواه.

***

متحفّزاً، أخطو بين أجهزة الكومبيوتر المتناثرة في صالة التحرير، المكان غارق

في الضوضاء، كل عينٍ أمر بجوارها ترميني بنظرة ثم تواصل ما كانت تفعله، أمامي يمشي مدير التحرير، ينعطف يساراً عند الصف الخامس من المكاتب وأنا في أعقابه، تتناهى إلى مسامعي جُمَلٌ مبتورة: رفح والشيخ زويّد. آه والله وأنا هكدب؟ الأهلي كسب اتنين. بيقولّك المرتبات هتقلّ. دا عيّل عصفورة. هتطلبوا أكل؟ إيهاب هيخطب ميسـ.. مكتبك يا عمر. أنتبه إلى أن الجملة الأخيرة موجّهة لي. قالها مدير التحرير الواقف عند كومبيوتر في الصف الخامس من صالة التحرير. أقول: شكراً يا مدير.

أجلس إلى جهازي وأنا أشعر بالعيون المحيطة بي تتفحّصني، هذا نصيب الوافدين الجدد. أفتح الكومبيوتر، يكتب المدير اسم المستخدم وكلمة السر، يشرح لي الشبكة التي ستربطني به وبسكرتير التحرير. يفتح ملف الديسك، نجد موضوعين قيد الانتظار، يطلب مني أن أبدأ فوراً في تحرير المواضيع وفقاً للتعليمات المظلّلة بالأصفر في رأس كل ملف، فأشرع في العمل.

في الموضوع الثاني، أشعر بحرارة قادمة من ناحية ظهري، أستدير فأجد شاباً هائل الجثّة يقف ويتأمّل الشاشة، يبادرني قبل أن تبدر مني أي ردة فعل: "مش حضرتك الديسك الجديد؟ أنا اللي كاتب الموضوع اللي حضرتك بتدسّكه. محمد كرم". يمد يده ليصافحني، فأصافحه، يسأل: "لو مضايقك أنا ممكن أمشي". أتمتم: "هناديلك لو فيه حاجة". يخرج سيجارة من علبته ويعزمني، أتناولها منه، وأشكره، فينصرف.

أطلب قهوة من الساعي، وأشعل السيجارة، زميلتي في الصف الخلفي تطلب مني إطفاءها، فأطفئها. وأواصل العمل. موضوع، اثنان، أربعة... بعد ساعة ونصف كرم يمد يده بسيجارة أخرى، يقول: "تعال نشربها عند الأسانسير". أضغط على زر الحفظ لكيلا أخسر ما أنجزته من الموضوع الخامس، وألحق به.

من الغيّوم، جاء كرم اليافع قبل سنتين، ليحقق حلمه بالاشتغال في الصحافة الاستقصائية، محتمياً في نصائح وتنظيرات يطبّقها بحذافيرها، بعد أن قرأها بعناية على مواقع مثل شبكة الصحفيين الدوليين، وأكاديمية بي بي سي للصحافة،

راكضاً وراء طموحه بكتابة تحقيقٍ استقصائي مُزلزل يحصل به على منحة مؤسسة أريج أو جائزة سمير قصير، ليتمكّن من إتمام حلمه بإنجاز الفيلم الوثائقي الذي لم يحدد موضوعه بعد. تنتهي السيجارة الأولى وكرم يواصل الثرثرة، أقدّم له سيجارة فيشعلها وهو يواصل تقديم نفسه. أنا أشعر بالصداع يا كرم. أريد أن أقول له ذلك، لكنه لا يأبه لتململي أمامه بينما أسند ظهري إلى الحائط. ننهي سيجارتينا في نفس الوقت، فأقترح أن نعود لنواصل العمل.

في المساء، وأنا موشك على الإصابة بالحوَل، أعاين ساعتي، الخامسة الآن، موعد الانصراف، أطفئ الجهاز، وأذهب إلى غرفة التحرير، ألقي السلام، يذكّرني سكرتير التحرير بضرورة إدراج بصمتي ضمن قاعدة بيانات جهاز البصمة لضبط مواعيد الحضور والانصراف، يرسلني إلى موظف الموارد البشرية الذي يصحبني إلى عامل الأمن، يطلب مني أن أختار إصبعاً لأبصم به، تلقائياً أختار السبّابة اليمنى، يبرمج الجهاز ثم يطلب مني أن أبصم، فأفعل، يضيء الجهاز بالأخضر ويصدر صافرة. يقول لي كرم الذي ظهر بغتة:

"مبروك. كدا إنتا كمّلت كل مراسم استعبادك".

—9—

نُورا II

بوسة واحدة

لغرفتي رائحة جورب منسيّ ومتعفّن. لطالما لامتني أمي على قذارة غرفتي، قالت إن دخان السجائر العالق مع رائحة الجوارب المتعفّنة سيصيباني بجلطة، ونصحتني بالاهتمام بالنظافة. والآن أقول لنفسي أين أنتِ يا أمي لتري الغرفة الآخذة في التحوّل إلى مقبرة؟ الجوارب والأكياس مبعثرة في كل مكان، الكتب تكسو الأرضية كما لو كانت بديلاً للسجّاد، رماد السجائر يغطي اللابتوب والمكتب، وملاءة السرير تفوح برائحة مكتومة لعرق ذكوري وكمكمة.

وسط هذه الأجواء تزورني نُورا. لم أكن أنتظر قدومها، غير أنها هاتفتني قبل قليل وقالت إنها ستمرّ عليّ. أرحّب بها، وأقول: تنوّريننني. فتنوّرني نُورا، التي تطرح نفس الملاحظات التي طرحتها أمي في آخر زياراتها للشقة: "ريحة أوضتك زي خرية الكلب". أخجل من ملاحظتها الفجّة، أخجل من نفسي أنا المتعايش مع القذارة بمنتهى الحب والوئام. أجهّز كوبايتين شاي، أضعهما على صحن كبير، وأخرج من المطبخ لأضيّفها. تنظر للشاي وتبتسم، تقول: "هو

انتا بتضايف جوز عمتك؟" ثم تضحك، فأضحك أنا أيضاً. تخرج من حقيبتها الكبيرة بحجم سلّة، كيساً أسود يسفر عن عبوّتي بيرة ستيلا.

نحتسي البيرة، ويبرد الشاي، تحكي نُورا عن نزاعها المستمر مع أهل زوجها الميت، حماتها ترى أن ابنة ابنها ستكبر مع أم فاسقة، شوهدت أكثر من مرة ترجع إلى البيت في وقت متأخّر، تاركةً الصغيرة مع شريكاتها في السكن. بخلاف أنها تعمل في مهنة قذرة ووسط يدعو للفجور "الصحفيين كلهم ولاد كلب"، كما نصّت أقوال الحماة، "والأهم من ذلك أنها تكبر مع أمّ "برّاوية وناشز" ترفض الاستناد على أهلها أو أهل زوجها، وحين يجدُّ الجدُ سنخسر البنت الصغيرة لأنه ليس هناك امرأة تقدر على العيش في هذه البلد دون رجل. هذه بلد الرجال". تدمع عينا نُورا، وأنا لا أعرف كيف أواسيها، أطلب منها ألا تبكي، فيتضاعف نشيجها المكتوم، أنظر حولي باحثاً عن شيء لا أعرفه، عساه يساعدني على طمأنتها. أقوم وأجلس إلى جوارها، يغمرني إحساس بالشفقة على الشابة المسكينة، تسند رأسها على كتفي وتنهنه، فاحتضنها دون حرج من صدري المترهّل. تمسح دموعها ومخاطها في ملابسي. أنتصب دون إرادتي، أضمّها إلى حضني أكثر، تنكمش هي داخله ويهدأ بكاؤها تدريجاً، يكتمل انتصابي، أمرر يدي اليسرى على شعرها وأمسّده، أصل إلى منبت ضفيرتها، أمسكها برفق وأعدل رأسها حتى تستوي أمام وجهي، أطبع قبلة رقيقة على خدّها، تنظر لي بامتنان وانكسار وتفرّ دمعة أخيرة من عينها اليسرى، أدنو منها مجدداً، هذه المرّة أبحث عن شفتيها، فتلتقط هي شفتي وتشبكهما، وأشعر بلسانها يجول في فمي، أشم رائحة أنفاسها، وأذوق طعم ريقها، أفتح عيني فلا أرى سوى مساحة كبيرة من بشرتها مستقرة أمام عيني بالضبط، لا يسمح لي التقارب بأن أكشف زاوية تمنحني مساحة معقولة للرؤية، فأغمض عيني مجدداً، أشعر بنَفَسي مكتوماً، وأخشى أن أواصل الشهيق والزفير فتنفّرها رائحة أنفاسي، بينما لا تزال هي مُطبقة على فمي. كانت تلك قبلتي الأولى عبر واحد وثلاثين سنة هي كل ما في رصيدي من وقت قضيته في هذا الكوكب.

ترفع نُورا شفتيها عن شفتي، أتنفّس، بينما لا يزال طعم ريقها ماثلاً في فمي، مثل مذاق حبّة منثول يبقى طويلاً بعد أن تذوب. دموعها أيضاً انطبعت على وجهي ووجنتي، وملمس بشرتها وشعرها الأجعد الرطب بزيوت وكريمات لا يزالان في كفّي. تقول بابتسامة باهتة: "قطعت نَفَسك". أقول بصوت متحشرج وعين واحدة مفتوحة: "طعمك حلو يا بنت الإيه"، فتبتسم.

تقوم نُورا وتشرع في تنظيف غرفتي، تعثر على كيس كبير وتجمع فيه الجوارب والكلاسين المبعثرة في كلِ مكان، تضع معهم كوفيّة قديمة وبنطلون وآيس كاب، ثم تجمع الكتب وتسكّنها في المكتبة وعلى الكومودينو جنب السرير. تبرم السجادة وتنقلها إلى الحمّام، تضعها في البانيو ثم تفتح عليها المياه لتغمرها، تأخذ من الحمام أدوات غسيل الأرض، وعاء وممسحة وصابون. تفتش في دولابي عن ملابس مناسبة، تعثر على بنطلون صغير وفانلة واسعة جداً، تبدل ثيابها، فتبدو وهي ترتديهما كمهّرج. تشرع في مسح الغرفة. تفتح الشباك وتعلّق أعواد البخور التي لمحتها في الصالة حيث أقبع مشغولاً بقبلتي الأولى، وبهذا الكرم الذي تغمرني به نُورا.

بعد فترة تخرج من الغرفة، وتشير صوبها: "رِجْعِت تنفع للاستهلاك الآدمي"، فأبتسم خجلاً. تدخل إلى الحمّام وتخرج بعد دقائق بشعر مبتل، وبملابسها التي جاءت بها، يفوح منها شذى الصابون والشامبو. تجهّز نُورا الشاي بنفسها، وتقدمه لي، تقول: "خلّي بالك من صحتك. أنا مطلّعة من الأوضة كمية غبار وطفي سجاير يجيبوا دبحة". أشكرها، وأدنو منها لأقطف قبلة أخرى. تضع كفّها على صدري برفق لتمنعني، تنهض وتدسّ قدميها في حذائها وهي تقول: "كفاية عليك بوسة واحدة".

***

لا أعرف الجهة التي يتبع لها أفراد الأمن بالجريدة، بذلاتهم الرسمية لا توحي بتبعيتهم لوزارة الداخلية، رغم أن الواحد منهم لا يختلف كثيراً عن أمناء الشرطة

المنتشرين في الشوارع، ريفيّون بجثث هائلة ولهجات تفصح عن قراهم البعيدة عن العاصمة. لا تفسير واضحاً للكيمياء التي جمعت بيني وبينهم، الأمر بدأ بمتابعتي لمباريات الدوري. هناك شاشة في الطابق الثالث حيث محررو الموقع، وأخرى في الخامس حيث قسم التنفيذ. بخلاف التلفزيونات الموجودة في مكتب رئيس التحرير التنفيذي والمكاتب المشتركة لمديري التحرير بواقع مكتبين لكل غرفة. مع هذه الخريطة لم يبقَ لي سوى أن أقف في مدخل المبنى على بَسْطة السلّم لأتابع المباريات مع أفراد الأمن.

اللواء هو لقب الشخص الذي لم أره، والذي فهمت أنه رئيسهم. تصدر لاسلكياتهم أصواتاً، يقول أحدهم "اللوا وصل"، فينتفضون، بسرعة احترافية، يخفون أطباق الفول السوداني واللب ومنفضة السجائر وسجاجيد الصلاة، ومن البوابة يهلّ رجل ضئيل القامة له كرش صغير يبدو كجزء غير أصيل من تركيبة جسده النحيل. ينتصب الجميع وقوفاً. أشعر بتوترهم فأنسحب تاركاً مكاني على السلّم، متنازلاً عن متابعة الهجمة الخطيرة للأهلي على مرمى المنافس. أتجه إلى مكتبي، أتفحّص ملف الموضوعات المعلّقة. الملف فارغ. أهم بتصفّح بريدي الإلكتروني منتظراً أي تكليفات جديدة من طرف الجريدة اللبنانية أو الموقع الخليجي. أسمع أحدهم ينادي اسمي، أرفع رأسي، فأجد باسم الحوراني يناديني. قدم الحوراني المشهور بنانو إلى مصر ضمن موجة من اللاجئين السوريين، يقول إنه كان مشروع بطل في الكيك بوكسينج، وإنه كان يتم تجهيزه لخوض بطولة غرب آسيا ممثلاً لنادي الجيش، إلّا أن الأحداث الدامية في سوريا أجبرته على النزوح إلى مصر مع زوجته وطفلته. يقترب نانو ويهمس: "مش عايز تكمّل الماتش؟ مشي اللوا". تطربني بادرة المحبّة التي يقدمها نانو، فأغلق الجهاز وألحق به إلى السلّم عند المدخل لمتابعة المباراة.

والآن، بعد أسبوعين، أصبح وجودي على بَسْطة السلّم لمتابعة المباريات أمراً عادياً، نانو وشعبان ومحمد عوض وممدوح سبيكة والجعفري وتايسون صاروا أصدقائي. أدخل عند العاشرة والنصف كل يوم فيستقبلونني بضحكاتهم.

ينبري سبيكة الزملكاوي ليشمت بهزيمة الأهلي بالأمس أمام فريق مغمور، أقول له: "الأهلي أهلي ولو دابت فتابِلُهُ". في البداية ظنه شعراً، وسخر من ردّي، قبل أن يتدخّل نانو وتايسون وعوض ليأخذوا صفي. أتركهم غارقين في النقاش التافه وأزرع بصمتي في شاشة جهاز البصمة. يومض الجهاز بالضوء الأخضر وتهتف سيدة بصوت وقور من داخل البلاستك الأسود: "ثانك يو"، أرد عليها "ويلكام"، يرد كرم الذي يظهر بغتة كالمعتاد: "ويلكم في القصاص حياةٌ يا أولي الألباب". أضطر للابتسام. خلاص قُضِي الأمر، أنا الآن جزءٌ من هذه الدائرة المقيتة، شبكة من العلاقات المهنيّة والاجتماعيّة المعقّدة، التي يتلخّص دورها في التكفّل بأمرين: أولهما منحي راتباً شهرياً ثابتاً مع مطلع كل شهر، باستثناء الخصومات. وثانيهما تخفيض مستوى ذكاء وحيوية المنخرطين فيها.

للأسف. أنا الآن جزء من الشبكة.

—10—

نُورا III

في الحُفرة

أصل قبل موعد العمل بساعة كاملة، أطلب فنجاناً من القهوة. أنجز موضوعاً. أكتب مطلع نصٍ حزين. أقرأ فصلاً من رواية جلبتها معي من البيت. أدخّن عدّة سجائر. أتبادل النمائم مع كرم المحترف في ما يخص نقل الأخبار. ينضم زميلان جديدان لدائرة معارفي. أخوض معهما نقاشاً عقيماً يفتقر إلى فنيّات السفسطة والحوار. أنجز موضوعين إضافيين. أتحدث مع مدير التحرير عن رواية **نساء** لبوكوفسكي. أشرب فنجاناً إضافياً من القهوة، ثم أقوم بجولة على مواقعي المفضّلة على شبكة الإنترنت. أكتب رسالة قصيرة لبنت مجهولة. أتلقّى مكالمة هاتفية طويلة من بطّة تخبرني فيها بإلغاء زيارتها مع أمي لمصر إثر إلغاء زيجة أخت زوجها. أتفرّج على أهداف الجولة الأخيرة من الدوري الممتاز. أكتبت سطوراً إضافية في النص الحزين. أراجع المواضيع التي حرّرتها في العدد الأخير من الجريدة. أقرأ فصلاً إضافياً في الرواية. أرسل أسئلة حوار صحفي لأحد الروائيين. وأرسل لغيره لأطلب منهم المساهمة في ملف أقوم بإعداده.

أدخن سيجارة أخرى. أسمع أغنية أحبّها. أسمع أغنية أتصوّر أن نُورا تحبّها. أنجز المزيد من العمل. أطلب سندوتشات بطاطس وطعميّة. أتلقى المزيد من النمائم. وأتفادى أكثر من أربع محاولات للسطو على رواية "نساء" التي أغرت الجميع هنا. يصل الأكل فألتهمه بسرعة. ثم أطلب فنجان قهوة مجدداً. أدخل إلى الحمّام وأقضي حاجتي. محاولة أخرى لاقتناص "نساء"... سيجارة. ولاّعة. نميمة. إفّيهات مُعاقة. أصوات عالية. قهوة. غصّة. انتصاب. شوق...

أفعل أي شيء لأقضي ساعات الوردية دون أن تقتحم نُورا أفكاري. لكن لا جدوى.

***

يكاد ينقضي شهران على وجودي في الجريدة، تتعاظم فيهما قدرتي على الانتظام في الروتين الوظيفي القاحل: الاستيقاظ قبل موعد العمل بساعتين. سيجارة على الريق ودُش سريع ثم كوباية شاي بالليمون لزوم الانتعاش الصباحي. الأجندة والقلم والموبايل والشاحن في شنطتي الصغيرة التي أعلّقها على كتفي، ثم أنطلق إلى الشارع. ميكروباص حتى كوبري الخشب ثم دقائق من التمشية إلى الجريدة، بعدها يبدأ العمل، ويبدأ الزملاء في التوافد، ويصل رؤساء الأقسام الذين يرسلون المواضيع إلى قسم الديسك ومنه إلى سكرتير التحرير الذي يرفعها لمدير التحرير. دائرة تراتبية مملّة لكنها بتأكّل عيش.

في الجريدة نماذج بشرية متنوعة، اكتشفتهم بالدردشة واختلاس البصر والتلصّص، كما تكفّل كرم وإيمان فرغلي ونانو بنقل كميات كبيرة من المعلومات التي لا أعلم يقيناً مدى صحتّها: محمد منصور من قسم الأخبار يحب جيهان من قسم المحافظات. محمد منصور يحب واحدة جديدة كل شهر تقريباً، ينسحق في حبّها تماماً ويكتب في صفحته على الفيس بوك كلمات غزل رقيقة تحصد إعجاباً كبيراً. الحالة تنتهي بأن تملّ البنت من انسحاقه الرقيق جداً والذي يكاد يصل لدرجة الخنوثة، فتهجره، ليحب غيرها. جيهان ذات

الملامح الإفريقية الجميلة، ساعدها تكوّر نهديها وبروز طيزها على تسلّق السلم الوظيفي سريعاً، إلا أنها تمرّ مؤخراً بفترة كساد بعد إسفين مدروس من سكرتيرة رئيس التحرير التنفيذي، أرجعها لوضعها الطبيعي، بل أوصلها للدخول في علاقة مع محمد منصور نفسه. أمّا سامح عطوة من قسم الثقافة فهو حامل حقيبة رئيس التحرير التنفيذي، وكلبه الأليف. سامح لا يلتفت للبنات الجميلات المتورّدات مطلقاً ولا يتابع مباريات الكرة، لأنه يشغل كل وقته في تقليد رئيس التحرير التنفيذي في كل شيء – حتى إطلاق شاربه – ومحاولة إثبات ولائه. تنافسه على الجانب الآخر هيام الشورى من قسم الحوادث. لهيام علاقات عميقة مع كل أقسام الشرطة في مصر، صديقة اللواءات، وصاحبة أقوى أجندة سوداء في المؤسسة كلها. تستطيع بمكالمة واحدة تحرير محبوس من التخشيبة، أو على الأقل تضمن له معاملة كريمة في القِسم. وتؤهّلها أجندتها الغامضة لتحريك قوات الأمن واعتقال أيّ شخص مُزعِج تسوّل له نفسه أن يضايقها، لذلك تحظى بمكانة رفيعة عند رئيس التحرير التنفيذي. هناك أيضاً زينة عتريس. ليزبيان الجريدة، هذا ما يؤكّده كرم. ترتدي زينة الأسود في كل الاتجاهات، وتستخدم كحلاً كثيفاً، ولا تتورّع عن إعلان إعجابها بقصّة شعر إحداهنّ، أو بساقيها المكتنزتين. زينة لا تعمل في قسم محدّد، هي فقط تطوف بين الأقسام المختلفة، وتقضي ساعاتها أمام الكومبيوتر الخاص بها، تستمع إلى الأغاني، وتجري أبحاثاً أرشيفية سريعة تساعدها في الموضوعات الغامضة التي تشتغل عليها. ومع انتهاء الورديّة تغادر. أكثر من زميل أكّد أنه رآها في المترو قرب محطة السيدة، حيث تسكن، مرتديةً الحجاب الذي لا نراها به في العمل. تبقى الإشارة إلى طموح زينة في العمل كـ"أشَر" في حفلات رجال الأعمال. أمّا مؤيد ممدوح، فهو شاب وطني متعصّب، مفتون بالهوية المصرية والحضارة الفرعونية، ويؤمن طوال الوقت بوجود مؤامرات خارجية على البلاد مصدرها قطاع غزّة، تقف حركة حماس دوماً وراء تلك المؤامرات، بالتكاتف مع المخابرات الإسرائيلية والإيرانية والأميركية والتركية والإثيوبية. بينما يتداول

الزملاء قصصاً عن زيجتين فاشلتين لمؤيد، وتفوح من كلتيهما رائحة الخيانة.

هؤلاء، وآخرون غيرهم، لا يمنعونني الآن من التفكير في الاتّصال بنُورا، لا الساقان الرهيبتان اللتان تمتلكهما هالة جميل مترجمة القسم الخارجي، ولا الملامح الملائكية والصوت الرومانسي الناعم لسالي عودة محررة الاقتصاد، ولا حتى فضائح زينة عتريس. إذ لا يزال طعم قبلة نُورا ماثلاً في فمي، طعم ريقها وأنفاسها المنعجنين بدموعها. أعقد العزم على دعوتها إلى العشاء في وسط البلد. أتصل بها، وأعرض عليها الأمر فتوافق، أدعوها إلى مشويات أبو خالد في شارع شامبليون مساء الغد. أغلق الهاتف، وأعود إلى العمل الذي لا ينتهي.

***

آآآه يا أول الشهر. يا موعد القبض والدفء، يا موطن النزاهة والصرف. يحلّ أول الشهر برداً وسلاماً على الواحد، يحل كأورجازم طال انتظاره من آنسة تزوّجت وهي في الأربعين. يحل كأغنية. كهديل حمامة عشّشت في الشجرة التي تقع أمام شُرفتك مباشرة...

أول الشهر هو الموعد الذي يتحوّل فيه الصرّاف إلى نصف إله، والموعد الذي تستطيع فيه أن تنظر في عيون الديّانة، بل والأدهى أنك تستطيع أن تعزم البنت التي تعجبك على أي شيء، لتقضي معها المزيد من الوقت، وترتب خططك لقنصها.

أول الشهر، هو عيد الناس الغلابة، وهو ظهري وسندي، الذي يمنحني الجرأة لأقول لأي واحد فيكم: "اللي له عندي لباس ييجي ياخده بنطلون"...

تمتدّ يد لتخطف الورقة من أمامي، أجفل ويسقط القلم من يدي. أجد نُورا تسأل

كما لو أنها أمسكت بي متلبّساً بالجرم المشهود: "بتكتب إيه؟".

في الطابق العلوي من المطعم، تجلس أمامي بعدما انتظرتها نصف ساعة كاملة بعد الموعد. أقول لها بينما أحاول استرجاع الورقة: "بَشخبط"، تنشغل نُورا بالقراءة، وانشغل مع النادل في الاستفسار عن القوائم المتاحة، ومن ثم أملي عليه طلبي. تصدر عنها ضحكات مكتومة وهي تقرأ ورقتي. تتدخّل في حديثي مع النادل وتطلب أنواعاً مختلفة من السَلَطَة، والتّبولة، والفتوّش. ينصرف النادل بابتسامة مصطنعة. تلتفت لي وتسألني:

- إنتا بقى عازمني عشان لسّه قابض ومش عارف تعمل إيه بالفلوس؟
- لا أنا عازمك كتعويض عن استغلالي ليكي في تنضيف الأوضة.
- طيزك حمرا. إنتا كنت هتموت لو قعدت كمان تمانية وأربعين ساعة في الحفرة اللي انت عايش فيها دي.

تضحكني "الحفرة"، أتابع نادلاً جاء بأطباق طحينة الحمّص والتوميّة، أشكره. وبينما أمضغ لقمة عيش بالتومية، أجد أن "الحفرة" هي الكلمة الأنسب لوصف غرفتي.

تركّز نُورا على السَلَطَات، تقول إنها تهتم بقوامها وبصحة قلبها وشرايينها. أكثر من أربعة أفراد من أقاربها من ناحية الأم ماتوا بأمراض القلب والشرايين، ومنهم أختها. هذا يجعلها تترقّب المرض الذي يتربص بجيناتها وتعمل له حساباً. عبد الحكيم أيضاً مات بأزمة قلبية، وأصبح شبح أمراض القلب وضيق الشرايين والكوليسترول بمثابة هاجس لها. أحاول تغيير دفّة الحديث، أفتح مجالاً للكلام عن الشعر، أسألها عن كتابتها، تقول إنها تنشر من حين لآخر قصائد في "أخبار الأدب" و"القاهرة الثقافية"، غير أنها لا تفكر في جمع قصائدها في كتاب. نُورا تبحث عن الحالة، عن ديوان مُكهرَب من الضفّة إلى الضفّة، لا تريد نصوصاً كجزر منعزلة. أبدي إعجابي بالفكرة، ثم أقترح عليها أن نشتري قنينة نبيذ ونذهب إلى الحفرة. توافق بعد أن تتأكد من أن الوقت لا يزال في صالحها.

نمرّ على خَرَلمبو الواقع عند التقاء شارع حسين باشا المعمار مع شارع محمود بسيوني، ونشتري زجاجة نبيذ أبارْكَه. بعدها أفضّل أن نستقل تاكسي، لأحمي انتصابي المكتوم تحت ملابسي، وأهرب من زحمة الميكروباصات.

في الطريق نمر قرب المستشفى القبطي، تقول نُورا إنها وضعت طفلتها هنا، ريم، التي ورثت كل ملامحها، ولم ترث من عبد الحكيم أيّ شيء تقريباً، كأنما كُتب على الصغيرة ألاّ ترى والدها ولا تحظى حتى بشيء من رائحته. أنتبه فجأة لحقيقة أن هذه السيدة الجالسة إلى جواري، أم، ترعى طفلة عمرها سنتان أو أقل، أو أكثر ربما من يعرف؟ أسألها عن عمر البنت فتقول: سنتين وستة أشهر. لو أضفناهم لتسعة أشهر من الحمل سيكون المجموع هو السنوات التي هجرت فيها وسط البلد وانقطعت عن نُورا والآخرين. يقول واحد جالس في رأسي: "هكذا هنّ النساء، ما إن تلتفت بعيداً عن واحدة منهنّ حتى تفاجأ بأنها فتحت ساقيها لأحد الذكور المحيطين بها". يقول آخر يجلس في الجهة المقابلة: "البنت تزوّجت على سنة الله ورسوله، ثم إنت مال دين أهلك؟" تقول نُورا: "ريم هتطلع رسّامة، عندها ميول فنّية"، ويقول الراديو: "أنا قلبي ليك ميّال". وأقول للسائق: "على جنب يا أسطا".

تبدي نُورا رضاها عن مستوى نظافة الشقّة مقارنة بزيارتها الأخيرة. تقول: "وإيه أخبار الحفرة؟". أمشي أمامها وأفتح باب غرفتي فيما أنحني بطريقة استعراضية، تلقي نظرة على الغرفة وتقول: "مش بطّال، على الأقل مفيش ريحة". فأنتصب! ها هي نُورا تقف على بعد متر واحد من سريري، وأنا أقف قربها بأذنين حمراوين وأنفاس ثقيلة متقطّعة وارتباك وُلِدت به، ويبدو أنه سيلازمني طويلاً.

أدخل إلى الغرفة وأبدّل ملابسي، وقبل أن أخرج تدخل ومعها زجاجة النبيذ وكأسين. أفسح لها الطريق. تأخذ موقعها عند الكرسي الوحيد أمام المكتب. تضع القنينة والكأسين. تفتح شنطتها وتستخرج من حقيبتها السكّين السويسري متعدد الاستخدامات. تشهر الفتّاحة من بين باقي الأدوات. وبمزاج وبطء تفتح

القنينة. تسكب كأسين. تطلب بعض الثلج. أصف لها موقع الثلّاجة، فتحمل كأسها ثم ترجع به مليئاً بالثلج، قابضةً بيدها الأخرى على ثلاثة مكعبات ثلج. تناولني كأسها، ثم تتناول الكأس الآخر من فوق المكتب وتسقط فيه الثلج وتشربه على جرعة واحدة. فأفعل مثلها، ثم أتمدد على السرير. تسكب كأسين جديدين، وتناولني واحداً فأرفعه على دفعة واحدة. وتفعل هي مثلي، ثم تضع الكأس على المكتب، وتندسّ في حضني. أهلاً بك يا نُورا، أرحّب بالدافئة الشهيّة التي ستكون مفتتحي في عالم النساء. أشعر بأنفاسها الدافئة تلفح عنقي، وبانتصابي آخذاً في التحجّر، وبالظلام يسود المشهد فجأة، فأتلاشى فيه.

***

في صبيحة اليوم التالي، أستيقظ بعينين مزغللتين وصداع ثقيل، لأكتشف أنها قلّبت الشقّة من كل الزوايا. لم تترك دُرجاً دون أن تنبشه. سطت على كل الفلوس في المحفظة والدولاب، والموبايل، وحتى المحافظ وزجاجات العطور التي أرسلتها بطّة. ليس ذلك فقط، اللابتوب أيضاً مفقود. الكاميرا والمسجّل. سلسلتي الفضية. لم تترك شيئاً بنت الشرموطة.

—11—

إعادة إعماري

الحياة لا تخلو من البعابيص، هذه حقيقة مطلقة، وسط عالم نسبي. بالأمس كنت سعيداً بالفلوس التي قبضتها، لكني الآن، والورقة أمامي والقلم في يدي، أجد عجزاً فادحاً في ميزانيتي، بسبب ما تكبّدته من خسائر على يد نُورا التي تلاشت تماماً. هاتفها مغلق، وعندما سألت عنها في مقر موقع العالم قالوا إنها تركت العمل منذ ثلاثة أشهر، يعني قبل حتى أن أراها في وسط البلد.

أصبح عليّ أن أوفّر نفقاتي، وأن أكتب أكثر. أفكّر بينما أحاول لفّ ثلاث سجائر من قطعة حشيش بالكاد تكفي لاثنتين، أقسّم التبغ المخلوط بالحشيش إلى ثلاث تلال صغيرة، أفرغ المزيد من التبغ على كل تلّة، وأبدأ في اللف، أقول لنفسي: "هذا فيما يتعلّق بالتوفير. فماذا عن مضاعفة الكتابة؟". فجأة تنبثق الفكرة في رأسي مثل دمّل، أشعل السيجارة التي لففتها وأفتش في كومة الكتب في إحدى الغرف حتى أصل لنسخة من روايتي الأخيرة، أجلس على الأرض، أسند ظهري إلى الحائط، وأشرع في التقليب في صفحات الرواية، صفحة، اثنتان، سبع، ست عشرة، إحدى وعشرون... وفي الصفحة الثانية والعشرين أجد مبتغاي، أقوم إلى اللاب توب، أنقل ثلاث فقرات، أختار لها عنواناً جديداً،

وأرسل النص إلى الجريدة اللبنانية كقصة قصيرة!

بعد يومين، عندما أرى النص منشوراً، أدوّن ذلك في أجندتي، وأسجّل خمسين دولاراً في مكافأة الشهر المقبل، ثم أواصل التفتيش في دفاتري القديمة، ومقالاتي التي نشرتها في بدايات مرحلة وسط البلد. أعثر عليها واحدة بعد أخرى، أغيّر ملامحها، أصكّ لكل منها عنواناً جديداً، ثم أرسل بمنتهى النشاط والتفاني تلك المواد إلى المحرّرين ومسؤولي الصفحات الثقافية. والأمر ذاته طبّقته مع كتاباتي الأدبية القديمة، المنشور سأعيد نشره في ثوب جديد مع بعض التعديلات، أما المواد القديمة غير المنشورة، فأظنّها ستكون أسهل في التصريف.

***

يستدعيني رئيس التحرير التنفيذي إلى مكتبه. ينتابني توتّر وأنا أتبع سامح عطوة عبر أروقة صالة التحرير، مروراً بالطُرقة التي تصلها بمكتب الاستقبال، ثم بانحراف إلى اليسار عابرين غرفتين لمديري التحرير، وصولاً إلى عرش رئيس التحرير التنفيذي. مع كل خطوة أتساءل عن سبب هذا الاستدعاء. يقرع سامح باب المكتب ويدخل، فأدخل في إثره، يقول: "عُمر يا ريّس". ثم يجلس. يدعوني رئيس التحرير التنفيذي للجلوس، ويدخل في صلب الموضوع مباشرةً:

– أنا متابع هذياناتك اللي بتكتبها ع الفيس بوك، كلامك عن أول الشهر وفرحة القبض والتفاهات الجميلة دي. عايزك تعمل لي صفحة منها، حاجة مطرقعة كدا وأجواء فيس بوك بقا وسوشيال ميديا ولايكات... فاهمني يا عمّور؟

أحاول أن أخفي فرحتي وأرسم وجهاً رزيناً، ألمح نظرة غير طيّبة في عيني رئيس القسم الثقافي، أردّ:

– مفهوم طبعاً يا ريّس، حاجة كدا بين اليوميات والتهييس والساخر. دا ملعبي.

يتدخّل رئيس القسم الثقافي:

– شاطر إنتا في التفاهات يا عيّاش.

قبل أن أستوعب دفقة الحقد التي سكبها سامح عطوة في جملته الأخيرة، يتدخّل رئيس التحرير التنفيذي:

– في إيه يا عطوة ليه الكلام دا؟ عيّاش كَتّيب وله أسلوب كدا يا أخي هتحبّه لمّا تقراه والله. ولعلمك عيّاش روائي وأصدر كتاب قبل كدا.

يقول الحقود:

– كله بينشر بفلوسه دلوقتي.

فأقول:

– أنا نشرت في أهم دار نشر في بلدك.

يرد كلب رئيس التحرير التنفيذي:

– ياسر بينشر لأي حد يدفع، خصوصاً الشباب. وإنتا ما شاء الله كرشك ولا الجاموسة الحامل، شكلها مزهزهة معاك، وواضح إنك إدّيته مبلغ محترم.

أحاول أن أتجاهل إهانته، وأسأله باستغراب من ردوده العدائية:

– وهو إنتا قريت الرواية أصلاً عشان تتحمق كدا. حاسب لا يجيلك فتاق.

يبتسم رئيس التحرير التنفيذي. يربدّ وجه ابن الزواني الموتور:

– وأنا هضيّع وقتي وأقرالك ليه؟ دا أنا حتى ما أعرفش اسمها. وعموماً أنا ما قراش غير الروايات اللي بيزكّيها الكتّاب الكبار، مش الروايات المطمورة في غبار النسيان.

– طيب ابقا إقرا الصفحة اللي هكتبها زي ما الريّس طلبها. دي مش هتبقا مطمورة في غبار النسيان.

يضحك رئيس التحرير التنفيذي كاشفاً عن فم كبير بوسعه أن يبتلع برتقالتين على دفعة واحدة. يخرس عطوة. أستأذن في المغادرة، بينما أفكّر في طريقة لمعاقبة ذلك الكلب.

أثناء رجوعي إلى مكتبي، تلفت نظري ورقة كبيرة معلّقة في مواجهة مكتب الاستقبال، وتحمل توقيع رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير، الذي

لا نراه تقريباً، ويطلب فيها متطوعين شباباً لمعاونته في حملته للترشّح إلى مجلس الشعب "على السادة الزملاء الراغبين في التطوع ضمن الحملة موافاة السكرتارية ببياناتهم"، لا أستغرق وقتاً طويلاً في التفكير، أصعد إلى الطابق السابع، أقدم نفسي للسكرتيرة وأطلب إدراج اسمي ضمن الحملة.

***

أول مبلغ يصلني أخصصه كاملاً لشراء لابتوب مستعمل وموبايل رخيص، تعويضاً عن مفقوداتي. أشرع مجدّداً في تجميع أرقام هواتف المصادر والكتّاب الذين أعتمد عليهم في تحقيقاتي وباقي المواد الصحفية. لحسن الطالع كنت أحتفظ بنسخ من كل ملفات الوورد التي كتبتها في ملف الحفظ على الإيميل.

بحثي المتواصل عن اللصّة لم يسفر عن أي شيء، صفحتها على الفيس بوك مغلقة. حتى أصدقاؤنا القدامى لم يسعفوني في شيء. نور هاجر إلى السويد، ومحمود اعتُقِل قبل سنتين ولا أحد يعرف طريقه، الوجوه القديمة المنسيّة من وسط البلد استغربت ظهوري المفاجئ بعد سنوات باحثاً عن نُورا، وأنا أخجل من مصارحتهم بسبب بحثي عنها.

في النهاية، ومع تفاقم الغيظ والإحساس بالمهانة، أضطر أن أحكي ما حصل لنانو، الذي يضحك في البداية، ثم تتلاشى الضحكة بعد أن يرى تجهّمي. يطلب مني أن أمدّه بكافة البيانات المتاحة عنها، وصورتها إن أمكن، ليحاول أن يصل لها. فأجهّز له صورتها الوحيدة المتوفّرة على الإنترنت وهي تقف ضمن الجمهور القليل في إحدى الحفلات القديمة لنور، وأرفقها بورقة صغيرة أدوّن فيها المعلومات التي أثق في صحتها عن تلك المخلوقة:

الاسم: نُورا جابر أو نُورا محمد جابر.

السن: مواليد 1988

المهنة: ؟

العنوان: غير معلوم. معتادة على التواجد في مقاهي وسط البلد

الأقارب والمعارف: ؟

أسلّم الورقة لنانو الذي يعد بأنه سيبذل محاولاته للعثور عليها، لكن دون ضمانات للوصول إليها. أهز رأسي وأشكره. ثم أتجه إلى مكتبي لمواصلة العمل.

***

أطلب من بطّة المساهمة في ترميم خسائري بعد أن ألفّق لها قصة عن مسلّحيْن اعترضاني في شارع مظلم. تبكي بطّة على حالي وحال البلد التي تدب فيها الفوضى والخراب، ولا يأمن الواحد على نفسه. بعد أن تطمئن على سلامتي وعدم تعرّضي لأذى تؤكّد أنها سترسل لي بعض الدولارات، لأتسلّمها في اليوم التالي من مركز تحويل الأموال.

وبعدها بأيام يصلني طرد منها فيه خمس محافظ جديدة وزجاجة عطر هوجو أصلية وطاقم مكوّن من ساعة وقلم وقدّاحة ماركة كارتير.

في أيام قليلة أتمكّن من بيع أربعة محافظ، قيمتها مضافة إلى الدولارات تغطي جانباً كبيراً من خسائري، فأقرر استثمار باقي عطايا بطّة. أهدي المحفظة الأخيرة لنانو، رغم فشله في التوصّل لأية معلومات عن نُورا. وأهدي الطاقم إلى رئيس التحرير التنفيذي في عيد ميلاده، وأحتفظ بقنينة الهوجو الأصلية لنفسي.

مع مطلع الشهر، ترسل لي الصحيفة اللبنانية والموقع الخليجي مكافأتي. وأتسلّم أيضاً راتبي من الجريدة. بالورقة والقلم أجد أنني استطعت في وقت معقول تعويض الخسائر. أطمئن. الآن لا يبقى من تلك الواقعة سوى غصّة خفيفة في الحلق. ولا يبقى من طيف نُورا سوى ذكرى لقبلة يتيمة، أستحضرها كلما هممت بممارسة العادة السرية.

—12—

حشيش

في غرفتي، أقوم ببحث متعمّق عن رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير، لأعرف كيف يمكنني أن أساهم في حملته. غير أنني أفاجأ بشبكة هائلة من العداوات التي ينسجها الرجل ببراعة. الخصوم يتكاثرون انشطارياً، ويتركّزون في منطقتي اليسار والتيارات الإسلامية. رجلٌ اجتمعت على كرهه الأمة، أو أغلبها لكيلا أكون مبالغاً.

قبل خمس سنوات، كان مجرد باحثٍ في الإسلام السياسي، يتعقّب تاريخ حسن البنّا وسيد قطب، ويحلل أقاويل أبي الأعلى المودودي ورجال الجماعة وفقهائها، وأذكر أني رأيته مرّة في دار النشر أثناء مراجعتي لروايتي قبل نشرها. كان يعرض على الناشر حينها مخطوطاً لكتاب عن مصادر تمويل الجماعات الجهادية في سيناء. وأذكر أيضاً أن كتابه لم يُنشر بحجة عدم أصالة المعلومات الواردة فيه، إذ لم تكن سوى تجميعات لفقرات ومعلومات واردة نصّاً في مراجع لم يحرص الباحث المغمور حينها على توثيقها. لكنني فوجئت به بعد المنعطفات الكبرى التي مرّت بها البلاد، وقد اعتلى منصّة إحدى الفضائيات دون سابق إنذار، وراح يبث تسجيلات وصوراً لبعض الناشطين في المشهد

السياسي، على طريقة "الاغتيالات المعنوية"، يفضح أفكارهم وهواجسهم ويقتحم أمورهم الشخصية، كأنما يراقب الجميع من موقعه كمصباح معلّق في سقف الغرفة الضيّقة التي نعيش فيها.

خلال عامين على الأكثر، كان الرجل قد أمتلك الجريدة، وترأّس مجلس إدارتها. ثم طوّر المشروع فصار هناك مجلّة وموقع إخباري، وتحّولت الجريدة إلى مؤسسة صحفية كبرى، تُصنّف رسمياً على أنها جزء من القطاع الخاص، إلا أن سياستها التحريرية تتماهى تماماً مع خطاب الحكومة. وهكذا، وجد الناشر إيّاه نفسه مضطراً لطباعة كتاب رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير الذي سبق له رفضه، بل إنه سعى حثيثاً لاستعادة المخطوط ونشره، إذ صار الرهان على اسم الرجل رهاناً على الحصان الفائز. وبالفعل حقق الكتاب حتى الآن أكثر من إحدى عشر طبعة، وتسبّب بمكاسب وفيرة لدار النشر.

مقالات عديدة حاولت تفكيك الجانب الغامض من سطوته: من أين يأتي الرجل بالتسجيلات والتسريبات؟ وكيف يتمكّن من تعقّب كل هؤلاء الذين فضحهم وشهّر بهم؟ ولماذا تتفاقم قوّته وتستطيل أذرعه بهذه الكيفية؟ ما هي صلته بالجهات الأمنية؟ وكيف يفلت من القوانين التي تحرّم مثل تلك الممارسات؟ والأهم من هذا كله كيف يأتي بكل تلك الانفرادات الصحفية التي تجعل جريدته دوماً في المقدّمة، أو على الأقل منافساً قوياً في سوق الصحافة بالبلاد؟ أهل اليسار ناصبوه عداءً صريحاً، وأدلى رموزهم بتصريحات هجومية ضده، منها ما قاله أمين عام حزب يساري عريق إلا أن وزنه في الشارع يعادل وزن خرقة بالية: "متلصص، ولا يخوض المباراة بنزاهة. هذا الرجل كالرياضي الذي يتعاطى المنشطات". وبعدها بأيام شاهد المناضل اليساري بنفسه فيديو يظهر فيه مع شابة تصغره بعمر كامل وهي تحاول جاهدة أن تجعله ينتصب... مع تعليق أسفل الفيديو: "رئيس تحرير "المواطن" لعبد الله مُراد: "مين فينا اللي محتاج منشطات؟"". أما أهل أقصى اليمين، فعادوه كما يعادون الجميع، وعادوه لأنه متخصص في النبش في تاريخهم، كجماعات وأفراد، وعادوه لأن جريدته

لا تراعي الشريعة في سياستها التحريرية، وعادوه بسبب "جنوحه للعلمانية" على حد وصف أحد مشايخهم. وهذا الشيخ بالتحديد اضطر للفرار إلى تركيا بعدما نشر الموقع الإخباري لجريدة "المواطن" تحقيقاً مدعّماً بالوثائق والصور، يثبت ضلوعه بشكل غير مباشر في الأحداث الدامية شرق البلاد. ليصبح مطلوباً لدى الجهات الأمنية.

في ختام جولتي البحثية، أرمي هذا التاريخ وتلك التساؤلات وراء ظهري، وأحسم موقفي من الرجل، أقرر أن أتشعبط في رضاه، ممنياً النفس بأن يأخذني شعرةً تحت إبطه.

***

للمرة الأولى أتعرّض للتفتيش أثناء دخولي من بوابة الجريدة، ويصرّ نانو على أن أمرّ من جهاز كشف المعادن، الذي بقي مُطفأً طيلة الشهور الماضية. أسأله بينما يفتّشني بابتسامة: "هو فيه حد هيزورنا النهار ده؟" يرد: "تعليمات يا أستاذ عيّاش". يسمح لي بالمرور. وفي المكتب أجد أن واقعة التفتيش هي الشغل الشاغل للزملاء.

أجد ملف الديسك ممتلئاً بالموضوعات، فأفاضل بين المواد حسب الموضوع: أسعار مقابر نجوم الفن. انتخابات رئاسة الغرفة التجارية، حوار مع وزير الشباب والرياضة، مقالة رأي عن تدهور مستوى التعليم في البلاد. تحقيق عن انتشار ذبح الحمير وبيع لحومها للاستهلاك الآدمي. أقرر البدء بهذا الأخير الذي أثار فضولي. فأشرع في ترميم الموضوع وتنسيق معلوماته، وقبل أن أصل إلى نصفه، تتناهى إلى صالة التحرير أصوات عالية، وصراخ، ثمة حركة ما تحدث عند الاستقبال. يقوم بعض الزملاء لاستطلاع الأمر. الفضول يغزوني إلا أنني أحب أن أحافظ على صورة وقورة لرجل ثقيل، فأقبع مكاني وأواصل العمل بينما أتحرّق لمعرفة ما الذي يحدث. بعد دقيقة تهدأ الجلبة القادمة من الخارج، ويدخل مؤيّد ممدوح ليعلن أن الأمن ضبط نصف كيس حشيش في

حقيبة سامح عطوة! ينفشخ فكّي وتتسع عيناي. يتوالى دخول الزملاء تباعاً، تقول زينة: "راح في أبو نكلة". أستعيد هدوئي وأعلّق: "التفتيش معناه إنه الأمن كان عارف، الراجل دا اتسلّم تسليم أهالي". يقول محمد منصور هامساً ومشيراً بسبّابته إلى الطوابق الأعلى: "إذا كان ربُ البيتِ بالدفِّ ضارباً". يقول مؤيّد ممدوح: "لا. بس التفتيش كان عشان سفير اليمن اللي جاي الجريدة النهار ده". تقول جيهان: "معقولة؟ بيعمل إيه بالحشيش دا كله؟". تقول إيمان فرغلي: "أحسن. ماكنتش بحبّه".

بعد ساعتين تُعلَّق ورقة تحمل إمضاء رئيس التحرير التنفيذي تفيد بتحويل سامح عطوة للتحقيق الداخلي. وبعدها بدقائق ورقة أخرى تفيد بصرف مكافأة استثنائية لأفراد الأمن بالمؤسسة وتنوّه بمجهودات رجل الأمن باسم الحوراني. وفي المساء نعرف أن رئيس التحرير ورئيس مجلس الإدارة تدخّل بنفسه لينقذ سامح من ورطته، ولينقذ سمعته أيضاً. لم يسمح الرجل للخبر بالتسرّب إلى أي مكان، حفاظاً على فرصته في الوصول إلى مجلس الشعب، إذ كيف سيكون الوضع عندما يستغل أعداؤه السقطة المدوّية للتشهير به وبصحيفته التي تضم صحفيين يتعاطون المخدرات وربما يتّجرون بها؟ لذلك فقط، انتشل الرجلُ سامحَ من وحْلَته، وأعاده إلى العمل.

—13—

نُورا IV

لا تكذبي...

الطرَقات على الباب تُفزِع غيمة النعاس التي تسلّلت إلى عيني. طرقات خافتة لكنها متواصلة. ورغم أنني لا أنتظر أحداً ولم أطلب أيّ شيء بالديليفري، أتغلّب على رغبة ملحّة بتجاهل الطرقات، أتجاهل الألم المزعج في أسفل ظهري، أزيح البطّانية وأنتعل الشبشب وأقوم لأفتح الباب، فأجد نُورا! لا إرادياً أضيّق الزاوية المفتوحة من الباب وأسدّها بجسدي، وبعد ثوان من الحملقة أسأل: "المرة اللي فاتت خدّرتيني. المرة دي سطو مسلّح؟". تبقى على صمتها، وتمدّ يدها إلى حقيبتها الكبيرة فأجفل وأغلق الباب. تستبقيني، تطلب مني أن أفتح، يأتيني صوتها من وراء الباب: "جبت لك الفلوس اللي خدتها". تطلب مني أن أنظر عبر العين السحرية فأجدها ممسكةً برزمة من أوراق البنكنوت.

أفكّر لثوان ثم أقول لها: "حطّيهم قدام الباب وامشي". فتنحني بتلقائية وتضع الرزمة ثم تستدير وتغادر بهدوء. أبقى على وضعي أمام العين السحرية أرقب ردهة الطابق. لا أحد يتحرّك، لا شيء سوى مواء بعيد يأتي من أحد الطوابق

السفلى أو من الشارع. أفتح الباب، أتناول الفلوس، أغلق الباب وأتربسه من الداخل. أعد المبلغ، عشرة آلاف جنيه بالضبط.

أتصل بنانو وأحكي له ما حدث فيتعجّب. أغلق الهاتف وأنهض لأحضّر كوباية شاي بالليمون، بينما أحاول تقليب الموضوع على أوجهه. بعد دقائق يرن هاتفي، رقم مجهول يومض على الشاشة، أخمّن أنه لنُورا. أرد، فيأتيني صوتها مختلطاً بأبواق السيارات ونداءات الباعة:

– عشان ماطولّش عليك، وعشان عارفة إنك مش طايقني. اللي معاك دول عشر آلاف جنيه، تقريباً تمن الحاجات اللي خدتها من الشقة. كدا نبقا خالصين؟

أرد دون تفكير:

– خالصين، ومش عايز أشوف وش دين أمك تاني.

– حاضر. سلام.

***

استدعاء جديد يصلني، لكنه لم يكن من رئيس التحرير التنفيذي هذه المرة، بل من اللواء، الذي أرسل ممدوح سبيكة ليستدعيني. يقع مكتب اللواء في الطابق الرابع، صورة الرئيس تزيّن الجدار خلفه، وشهادات تقدير وصور كثيرة تجمعه بوزراء سابقين ونجوم للفن والرياضة تنتشر في أرجاء المكتب.

يرحّب بي الرجل، ثم يطلب مني أن أجلس، فأجلس، ينشغل لدقائق في مكالمة، بينما يدخل الساعي ويقدّم لي كوباية الشاي بالليمون، أندهش، يثبّت اللواء نظره عليّ، كأنما يقيس ردّة فعلي، بينما يواصل مكالمته.

بعد دقيقة يقفل موبايله، ثم ينظر لي ويقول:

– عم محمود الساعي قال لنا إنك بتحب الشاي بلمون. وإحنا عايزين نضايفك.

أزدرد ريقي. أي بداية تلك. وما الذي يرتبه لي الرجل؟ أمرّر له ابتسامة

باهتة فيما تتسارع نبضات قلبي. أشكره على كرم ضيافته، ثم أستجمع شجاعتي وأسأل:

– خير معاليك؟ أؤمرني.

يقول اللواء بعد أن يشعل سيجارة وينجعص في كرسيه:

– واحد صاحبي اشتكى لي منك.

أشعر بالذعر، هناك من يحاربني من وراء حجاب. أسأل بصوت مكتوم:

– مني أنا؟ مين يا فندم؟

– شريف العجماوي.

يسقط في يدي، كل حرف في اسمه بمثابة جلدة على ظهري. أبتلع ريقي بصعوبة، ثم أعلّق:

– ياااه. دا قلبه إسود.

يقول اللواء:

– دا صاحب حق.

قبل أن أحاول تفسير المعركة التي دارت بيني وبين الدكتور، وتوضيح الأسباب التي دفعتني لأعاقبه عن طريق تغريمه بفاتورة تليفون ضخمة، يقول اللواء:

– بس دا مش موضوعنا.

أحاول أن أبتلع ريقي هذه المرة، لكنه لا يُبلع، تتكاثف قطرات عرق ضئيلة على أرنبة أنفي، وأشعر بالنبض في أذني، بل أسمعه مكتوماً في شرايني. أقول:

– خير يافندم؟

– اشرب الشاي يا عُمر.

أنصاع دون نقاش، أمدّ يدي للكوباية وأجرع رشفة، أعيد الشاي إلى مكانه ثم أنظر للواء الذي يواصل:

– أنا عارف إن إنتا اللي عملتها في سامح عطوة.

بيني وبين الذبحة نصف خطوة، النبض يتصاعد في أذني بينما أفرك كفّي الباردتين ببعضهما:

– عارف إنك سبته يتفق مع محمد كرم عادي، وبعدين اتفقت إنتا مع كرم، وعارف إنك خليته يتأخّر على سامح يومين، واخترت يوم فيه زيارات من ضيوف مهمين للجريدة عشان يبقا منطقي إن الأمن يفتّش الناس اللي شغّالة، وعارف إنك اتفقت مع هيام الشورى تخلّي مشرف مناوبة الأمن ينزّل نانو مخصوص عشان إنتا متّفق معاه يقفش الحرز اللي مع سامح.

لا شيء، ولا كلمة، كأن حجراً بحجم قبضة اليد يتوسّط حلقي، فأبقى صامتاً.

يواصل اللواء:

– عارف كمان إنك عملت كدا عشان سامح عطوة بيعطّل نشر مواضيعك وزي ما إنتو بتقولوا كدا بينفسن عليك. بس الحاجة الوحيدة اللي مش عارفها يا أستاذ عيّاش، هي إذا كان تأخير نشر مواضيعك سبب كافي يخليك تتآمر على واحد وتحاول تدمّره بالطريقة الوسخة دي؟

قُضي الأمر، أقول لنفسي. أستأذن في إشعال سيجارة، فيقول اللواء "إتفضّل". أشعلها، أدسّها بين شفتي وأسحب نفساً عميقاً، يقول اللواء:

– بس عجبتني. والله عجبتني، تنسيق الموضوع بينك إنتا ونانو وكرم وهيام ممتاز. لكن اللي إنتا ماتعرفوش بقا إن نانو كان معرّفني الموضوع من ساعة ما اتفقتوا. أنا رجالتي مايقدروش يلعبوا بديلهم من ورايا.

يا نانو يا ابن الشرموطة! أقول لنفسي. أتجرّأ قليلاً وأسأل:

– طيب حضرتك أنا كدا هيحصل معايا إيه؟

يتجاهل اللواء سؤالي، ويردّه بسؤال:

– بس تأخير المواضيع بس هو السبب في الزّر دا؟

أفكّر لثانية متعللاً بالسيجارة التي في فمي، أجد نفسي مفضوحاً تماماً فألعبها بصراحة:

– كلّمني بطريقة بايخة. ودايماً بيحاول يحرجني قدّام الناس.

يثبّت اللواء عينيه عليّ لبرهة، قبل أن ينفجر ضاحكاً، يقول وهو يسعل:

– والله إنك عسل.

– شكراً معاليك.

ينجعص اللواء مجدداً في كرسيه، ثم يقول بنبرة أبويّة:

– مافيش حاجة هتحصل معاك يا أستاذ عُمر. أنا حبّيت بس ألفت نظرك، إن الحركة دي كان ممكن تأثّر على فرصة راجلنا في البرلمان وتعمل وَغَش، فبلاش. وأي حاجة تضايقك تعال كلمني فيها على طول.

– تحت أمرك.

– الأمر لله يا حبيبي.

– أقدر استأذن؟

– إتفضّل.

***

أستقل سيارة أجرة إلى البيت، وفي الطريق أفكّر في اللواء الذي تلاعب بي وكشف خطتي، ونُورا التي ظهرت بغتة لتمنحني عشرة آلاف جنيه كأنما تكفّر عن ذنبها. لا أجد رابطاً بين الأمرين، ولا أعتقد أنه يجب أن يكون هناك ما يربط بينهما. لو أن رأسي آلة، فإنها في هذه اللحظة بالذات سيتصاعد منها الدخان ويتّجه مؤشر حرارتها إلى المنطقة الحمراء.

في البيت، أشغّل الكومبيوتر وأتصفّح الفيس بوك، فأجد طلب إضافة من نُورا. أتجوّل في صفحتها وأراجع تواريخ الصور فأكتشف أنها صفحتها القديمة. فقط أعادت تشغيلها. أفكّر هل أرفض الطلب أم أقبله، هل تلاعبني الأستاذة، هل لديها خطط جديدة؟ وأين كانت طيلة الشهور الماضية، منذ أن سرقتني وحتى جاءتني بالأمس؟ أثناء شرودي في تلك التساؤلات، يحمرّ مربع الرسائل راسماً الرقم 1. أضغط على الأيقونة التي على شكل مظروف، فأجد رسالة من نُورا، أفتحها وأقرأ: "لما أخدت الفلوس والحاجات كنت ناوية أرجعهم تاني،

والحمد لله قدرت أعمل كدا. المشكلة في الطريقة، أتمنى تسامحني. أنا كنت محتاجة مبلغ كبير خلال مدة صغيرة، كان عليا ديون ووصولات أمانة. والحمد لله دلوقتي سددت كل ديوني، آخر دين في رقبتي هو إني اعتذرلك... وأطلب منك تسامحني".

أكتب لها دون تفكير: "وليه ماطلبتيش المبلغ مني بشكل مباشر؟"، ثم أضغط على زر الإرسال، أنتظر دقيقة قبل أن يصلني ردّها: "ماعرفش. قلت يمكن مايكونش معاك كاش كتير. الحسبة كانت راكبة عليك بالضبط، خمّنت إن اللابتوب والكاميرا والمسجل والموبايل هيكونوا تقريباً قد المبلغ اللي كنت محتاجاه، وساعتها كنّا في أول الشهر، وانت كنت عازمني فخمّنت إنك قابض ومعاك قرشين. الحسبة كلها كانت مضبوطة على مقاسك".

أقرأ رسالتها الأخيرة، تحتشد الدموع في عينيّ عندما أدرك أنني كنت بتلك السذاجة. كانت تعرف أني سأطلب منها مرافقتي من المطعم إلى البيت. وكانت تعرف بفضل زيارتها الأولى أبعاد شقتي ومحتوياتها. وقبل كلّ ذلك كانت موقنة أن قبلتها الأولى فعلت بي الأفاعيل. أشعل سيجارة وأكتب لها: "ويا ترى بقا عندك بنت اسمها ريم وكنتي متجوّزة عبد الحكيم الله يرحمه ولا دي كانت عدّة الشغل؟".

أسحب نفساً، اثنين، خمسة. ونُورا لا تردّ. أشعل سيجارة أخرى. ونُورا لا تردّ. أذهب إلى الحمّام وأقضي حاجتي ثم أرجع أمام الكومبيوتر. ونُورا لا تردّ.

في النهاية، أغلق اللابتوب كمن يغلق كتاباً مملاً. وأندس في فراشي، أضرب عشرة عظيمة على شرف نُورا. ثم أنام مبتلّاً بخيالاتي.

—14—

تعليمات عليا

بالكثير من الإلحاح والضغط أقنعت وزير الثقافة السابق بحضور المؤتمر الانتخابي لرئيس التحرير. بالمثل أقنعت صديقي الشاعر الشاب ذائع الصيت مصطفى نادر ليلقي قصيدته الشهيرة مصحوبةً بعزف العود. والاثنان، الوزير والشاعر، مانعا طويلاً ثم رضخا لإلحاحي.

السرادق منصوب في مركز شباب تابع لمنطقة أرض اللواء، أحد أكثر أحياء القاهرة ازدحاماً. والمؤتمر الذي وُزِّعَت فيه بعض الهدايا على الأهالي، شهد حضوراً كثيفاً، خاصة بعد أن تمكّن أحد محرري الرياضة من استقدام لاعب مشهور يتمتّع بسمعة طيبة وشعبية جارفة لدى الجماهير. كان مؤتمراً حاشداً، تعهّد فيه المرشّح بأن ينشئ مكتباً لتلقي الشكاوى وتقديم الخدمات لأبناء الدائرة، كما وعد بالتركيز على الجوانب الصحية والتعليمية، وأشهد الناس على أنه حال وصوله للبرلمان سيجعل مركز الشباب يقارع الأهلي والزمالك، لأن أرض اللواء معروفة بأنها منجم مواهب ولا ينقصها سوى تسليط الأضواء وتمهيد بنية تحتية مناسبة.

في المساء، بعد المؤتمر بساعات، أتجاهل الآلام في ظهري، وأجلس في

غرفتي لأتابع ردود أفعال الدوائر الثقافية المختلفة على حضور الوزير والشاعر للمؤتمر. النسبة الكبرى تهاجمهما وتنعتهما بأفظع الأوصاف، إلا أن هناك فئة صغيرة، اعتبرت حضورهما بمثابة إشارة على كفاءة المرشح، وانفتاحه على قضايا الثقافة، معتبرين أن دعمهما لرجل الدولة في حملته خطوة ذكية تهدف إلى الإصلاح من الداخل.

طيلة الليل، أتابع الجدل والنقاشات الدائرة على مواقع التواصل الاجتماعي، فأجد أن نسبة المقتنعين بنظرية "الإصلاح من الداخل" آخذة في التزايد، وإن كانت زيادات طفيفة، إلا أنها ملحوظة، فأشعر بالزهو، وأقرر تكرار الأمر في مؤتمر الأسبوع المقبل في العجوزة، لا سيّما وأن الدائرة الانتخابية التي تضم أحياء الزمالك والدقي والعجوزة والمهندسين تشتهر بأنها مقرّ سكن الكثير من الصحفيين والكتّاب أبناء الطبقة الوسطى ارتباطاً بوجود العديد من الصحف في تلك المنطقة، ومنطقة وسط البلد المجاورة. ويجدر بالحملة أن تستقطب أصوات هؤلاء لأنهم النسبة الكبرى من المصوّتين على عكس باقي دوائر العاصمة التي يشكّل فيها أبناء العشوائيات والمناطق الشعبية أغلبية كبرى.

***

يستدعيني اللواء مجدداً، ومثل المرّة الأولى لا يترك لي فرصة للتفكير:

– محمد كرم.

– ماله يا فندم؟

– متطوّع في حملة خالد عزّام. وعيب أوي ياكل عيش هنا ويروح يساند المنافسين.

– ...

– يرضيك كدا؟

أتردد لثوانٍ، ثم أجيب:

– أنا ممكن أكلّمه وأقنعه يا فندم. محمد أنا ليا دلال عليه وبيعتبرني زيّ أخوه الكبير.

– وهو فيه أخ أصغر مايقولش لأخوه الكبير على حاجة زي دي؟ طيب يا أخ يا أكبر هل تعلم أن محمد كرم النهار ده ملا استمارة الانضمام لحملتنا الانتخابية؟

– ...

– عرفت إنك بطّيخة؟

– شكراً لمعاليك.

– يا عمّور إفهمني. أنا دلوقتي مش بكلمك بصفتي مدير الأمن في المؤسسة، لا. بكلمك بصفتي منسّق الحملة الانتخابية. زميلك يعني. وبناء عليه مطلوب منك تتابع الولد اللي اسمه كرم دا.

– أتابعه إزاي يعني؟

– أنا هقول لك إزاي...

يستفيض اللواء في الشرح، يملي عليّ تعليماته، ويمدّني ببعض التكنيكات وأساليب المناورة. يطلب مني تحميل برامج لتسجيل المكالمات على موبايلي. كما يؤكّد على أن أية تغييرات في مواعيد تحركي تقتضيها مهمتي – تستوقفني كلمة "مهمة" – سوف تتم بالتنسيق معه لكي يعفيني من الخصومات والعقوبات الإدارية. يتكلّم اللواء وكأن انصياعي لتلك الأوامر أمر مفروغ منه ولا يحتاج إلى أيّ مجهودات من طرفه لإقناعي. أهزّ رأسي طوال الوقت كمن يستوعب درساً، أستفسر في بعض النقاط التي تبدو غير واضحة لي. يفسر هو أهمية دوري؛ فالرجل يفترض أنه أمسك بطابور خامس داخل المؤسسة، يعمل على نقل كل تحركاتنا والمعلومات المتوافرة له للمنافسين. لذلك يؤكد اللواء على ضرورة ألا ألفت الأنظار، وألا أنهال على كرم بالأسئلة، والأهم من ذلك هو أن ألتزم بكل تعليماته بحذافيرها، لا مجال للابتكار والتجويد، لأن الخطة محكمة بنسبة مائة في المائة. وأهم تلك التعليمات هو أنه لن يستدعيني مجدداً إلى مكتبه،

تجنّباً للفت الأنظار، وكلّ ما أريد أن أبلغه إياه عليّ أن أدوّنه في ورقة ثم أسلّمها لعم محمود الساعي.

عم محمود الساعي؟

ذلك الرجل الأمّي، لم أتوقّع أبداً أن يكون من رجال اللواء، لأنه، وفقاً لما أعرفه، امتهن منذ صباه الإشراف على البوفيه في الجرائد، وانتقل بين عدّة مؤسسات إعلامية، حتى وصل إلى مؤسستنا قادماً ضمن دفعة كاملة من الراحلين عن جريدة أخرى أشهرت إفلاسها قبل ثلاث سنوات!

يعيدني اللواء من شرودي عندما يقدّم لي سيجارة. آخذها منه ولا أشعلها، يذكّرني بإسم تطبيق تسجيل المكالمات. أهزّ رأسي موافقاً، ثم أستأذنه وأغادر.

—15—

نُورا V

الشوربة والزبادي

غسيل المواعين هو أصعب مهمة قد تواجه الرجل الأعزب. كتل الدهن التي تخثّرت على الأسطح الزجاجية. الذباب المتكاثر فوق الحوض المكدّس بالصحون المنسيّة منذ أيام. لمعة الألم أسفل العمود الفقري. والمياه الباردة المنثالة من الصنبور في الشتاء لتهتك سلام مفاصل أصابعك. لأجل كومة الصحون المنسيّة في الحوض منذ أسبوع أستيقظ مبكراً، أغسل وجهي وألفّ سيجارة الاصطباحة، أدخّن نصفها ثم أشرع في جلي الصحون. صوت اللواء يرنّ في أذني منذ الأمس، أفكّر في المهمة التي أوكلها إليّ بمراقبة محمد كرم، تتصاعد عبر حلقي سوائل حمضية وأشعر برغبة في التقيؤ، يسقط صحن زجاجي من يدي ويتهشّم على الأرض. أغلق الصنبور وأتجه إلى ما تبقّى من السيجارة الملفوفة فأدخّنه، بينما أقوم بجولة على الإنترنت لقراءة عناوين الصحف والمواقع الإخبارية. تنتهي السيجارة فأنهي معها جولة الصحف وأقوم لجلب الجاروف والمقشّة لأكنس شظايا الصحن المكسور. في طريقي إلى المطبخ أشعر بالألم

البارد في كعب قدمي، قطعة زجاجية شرطت الجلد واستقر جزء منها في عمق كعبي، قطرات من الدم تنبثق فوراً وتلوّث الأرض. أجلس بين الشظايا وأمسك بالجزء الظاهر من الشظية ثم أسحبه، تنسحب روحي معه من كعب قدمي. أنهض وأحجل على اليمنى، أتشجّع قليلاً وأضع أصابع اليسرى على الأرض، فينهمر الدم غزيراً، أرفعها عن الأرض مجدداً وأواصل الحجل إلى الحمام، أفتح الماء الساخن في البانيو وأضع قدمي تحته، لأنظّف الجرح المفتوح. أقفل الصنبور. أجفف قدمي ثم أحجل إلى المطبخ مجدداً. أستخرج البن وأكتم به الجرح. من صيدلية البيت أخرج قطعة قطن وشاش. أغسل الجرح من البن، ثم أطهّره وأضمدّه بالقطن والشاش. أتصل بمدير التحرير وأطلب إجازة عارضة فيرفض. في سرّي أنعته بالمنيوك، ثم أقوم لأرتدي ملابسي وأنزل من البيت، آخذ ميكروباص وأنطلق.

في الجريدة يضحك كل من يراني مرتدياً حذائي في القدم اليمنى، وشبشباً منزلياً في اليسرى الملفوفة بشاش أبيض. يراني مدير التحرير فيشعر بتأنيب الضمير ويقول إنه بوسعي العودة للبيت، فأقول إني جئت وخلاص وإني سأعمل اليوم وأعطّل بالغد. أتجه لجهازي، أفتح ملف الديسك فأجده مكدّساً بالمواضيع تماماً مثل الحوض المكدّس بالمواعين. أشرع في جلي الهراءات التي يكتبها المحرّرون، أنقّي المعلومة من كتل الدهون وبقايا الصلصة والزيت والخضروات العالقة في المادة. موضوع عن منع السلطات المصرية لمثقفين وكُتّاب عرب من دخول البلد، يرفضون منحهم الفيزا أو يوقّفونهم في مطار القاهرة ثم يردّونهم على أقرب طائرة إلى بلدانهم. وسط هذا السياق تنتأ معلومات أرشيفية عن رواية لأحد أولئك الكتّاب. المحرر شرد من فكرته وراح يحلل الرواية. فقرة كاملة إلى سلّة المهملات. أشدّ الموضوع وأخلّصه من الشحوم بحذف كل ما هو زائد عن السياق، ثم أمرّره لسكرتير التحرير. قبل أن أبدأ في الموضوع الجديد، أشعر بيد أنثوية تربت على كتفي. ألتفت، لأجد نُورا حاملةً ابتسامتها السيمتريّة الحلوة.

***

تطلب شيشة وعصير فراولة، وأطلب شاياً بالليمون. تسحب نفساً من اللّي ذي الشكل العثماني، ثم تقول:

– البنت كانت محتاجة عملية فتاق، استلفْت وكتبْت على نفسي إيصالات أمانة، وكان عليا إيجار متأخّر، داغير إن العملية دي وراها مصاريف أدوية وعلاج ونقاهة...

أقاطعها:

– سلامتها. بس إنتي بتحكيلي كل داليه؟

ترتعش شفتاها، ذبذبات ما تصدر عنها وتخترق مجالي. يفصلني عنها حجاب من دخان شيشتها بنكهة التفّاح، وتصلني بها خطوط أثيرية مبهمة. تسعل نُورا، ثم تهمس:

– أنا مش حرامية يا عُمر. كنت بدافع عن حياتي وحياة بنتي، وأثبّتلك بالفعل مش بالكلام إني مش حرامية، مكنش قدامي غيرك، لا كان ينفع أروح لأبويا ولا لحماتي... نفسي تقدّر الظروف دي.

– بردو بتحكيلي ليه؟

– ...

يطول الصمت لدقائق، تتخلّلها رشفاتها لعصير الفراولة، ومتابعتي لأهداف الدوري الإسباني المعروضة على الشاشة. بعد قليل تهمس نُورا:

– مش هتعرف تسامحني؟

ألوّح للنادل من بعيد ليأتي بالحساب. تحملق هي تجاهي فيما تلتمع عيناها بالدموع. أقول:

– نُورا إنتي فعلاً مش حرامية. بس مش دوغري، مش واضحة، مش سالكة، معقربة ونابك أزرق، ملكيش أمان، والأوسخ من دا كله إنك أسأتي الظن فيّا، محاولتيش تجرّبيني، قلتي استحالة يبيع اللابتوب أو الموبايل ويدبّر لي الفلوس. إنتي مش مديونالي بفلوس، إنتي مديونالي بالطريقة الحقيرة اللي فكرتي بيها فيّا، ومديونالي بخيبة أملي فيكي.

يصل النادل، يلاحظ الأجواء المكهربة والدموع في عينيها فيضع الشيك ويمضي في هدوء. أخرج محفظتي وأضع الحساب والبقشيش، ثم أنصرف دون كلمة أخرى.

***

بشبشبي وحذائي، أواصل مشيتي العرجاء إلى الجريدة، وأنا أفكّر في نُورا. هل تنسج لي خدعة أكبر من السابقة؟ أم تراني أنا الذي أصبحت حذراً بشكلٍ مبالغ فيه، على طريقة "اللي إتلسع م الشوربة، ينفخ ف الزبادي"؟ لكن المثل فاسدٌ منطقياً في هذه الحالة بالذات. أقول لنفسي.

تائهاً في تهويمة الشوربة والزبادي أصل إلى الجريدة. أجلس إلى مكتبي، أتناسى نُورا ودموعها، أفحص ملف الديسك فأجده خالياً. أرسل الساعي ليشتري لي سجائر وقرصاً مسكّناً لظهري الذي صار يؤلمني في وضعية الجلوس. ثم أفتح صفحة وورد وأكتب:

> البؤس يعشش في كل زاوية. ضغطي مرتفع، وأشعر برغبة جارفة في التشخير لكل من ألقاهم. سجائري خلصت، والحياة بلا دخان في هذه المدينة الغبارية تشبه محاولة أي بهيمة لتعشير بهيمة أخرى، رغم أن كليهما ذَكَر.
>
> الفجوة آخذة في الاتساع، والثقب يتحول إلى شرخ، والشرخ في طريقه للانفشاخ بشكلٍ كامل، وقريباً جداً، أبشّركم، ستتحول الحياة إلى نوع من رياضات ألعاب القوى. ستركضون حتى تتفسّخ أوصالكم، وستلهثون ككلاب الصيد، وحدهم أولاد المنيوكة سينجون بأنفسهم، أولئك الذين غشّوا في الخفاء ببراعة أو الذين تعاطوا المنشطات أو رشوا الحكّام، أما الحكّام أنفسهم، فستتعفن جثثهم على جوانب الطرقات.

—16—

رائحة السُّلطة

بعد عدّة أيام من لقائي باللواء، تكتمل بين يديّ معلومات كافية. أفتح صفحة وورد وأكتب:

رصدت صوراً لمحمد كرم على صفحته في الفيس بوك وإنستجرام توثّق حضوره في مدرجات جمهور الزمالك. ينتمي المحرر محمد كرم إلى مجموعة من أولتراس نادي الزمالك تسمّى "زمرة الفارس الأبيض"، وهذا ما عرفته منه بشكل مباشر. قبل يومين دارت بيني وبينه مكالمة (مسجّلة ومرفقة)، تناول فيها التغييرات الإدارية الأخيرة في الجريدة، وتطاول فيها بالسّباب على رئيس التحرير وغيره من السادة الزملاء والمدراء بحجة أن مديري التحرير الجدد يَقُصّون من رواتب المحررين الغلابة ليزيدوا رواتبهم. أيضاً تمكّنت من رصد المكان الذي يقصده محمد كرم وبعض أصدقائه لتدخين الحشيش في ميدان الصحابة الواقع خلف مبنى الجريدة، وبالتحديد في حديقة الميدان، عادةً

يحدث ذلك في سيارة أحد أصدقائه (اسمه عز الدين وسيارته سبيرانزا سوداء وتحمل لوحة معدنية رقم غ د ر 613)، وهذا اللقاء يتم تقريباً بشكل يومي. بخصوص حملة المرشّح خالد عزّام، يبدو أن محمد كرم ترك الحملة، أو أنه لا ينشط بالشكل المطلوب، لأن أغلب أوقات فراغه قضاها مؤخراً في محل للبلاي ستيشن في شارع البطل أحمد عبد العزيز بالمهندسين أو على قهوة سهراية في شارع السودان.

أراجع ما كتبته، ثم أطبع الورقة من أقرب إنترنت كافيه. أطويها بعناية، وأدسّها مع فلاش ميموري في مظروف اشتريته من مكتبة قريبة من البيت. ألعق طرف المظروف ثم أتأكد من إغلاقه. آخذه معي إلى الشغل. وفي غفلة من الجميع، أسلّمه لعم محمود الساعي وأطلب منه أن يوصله للواء. يبتسم عم محمود ليكشف عن أسنان بيضاء وصحّية لا تناسب كهولته. يقول: "أحلى قهوة لأستاذ عيّاش". فأشكره وأنصرف إلى مكتبي.

***

فرقتان موسيقيتان تناوبتا على المسرح المجهّز لاستضافة المؤتمر الانتخابي في العجوزة. خططت لتغيير النشاط وفقاً لمستوى الجمهور المتوقّع. نسّقت مع فرق مغمورة يديرها مطربون هواة وموهوبون، يغنون لـ"الشارع والناس والخطوات، ويشهرون أحلاماً متعددة التأويلات في وجه الحضور الذين يتمايلون مع ألحان الروك الشرقي" على حد تصنيف أحد المطربين. البرنامج تمثّل في أن يبدأ فريق من الاثنين في أغانيه، ثم ندوة قصيرة لمدّة رُبع ساعة بخطاب مكتوب سلفاً سيلقيه المرشّح، تعقبه فقرة الفرقة الثانية. قطعة خراء مخفيّة بعناية بين لوحَي شيكولاتة. طُعم يضمن عدم مغادرة الحضور المبهورين بموسيقى الروك الشرقي ومسرح الشارع.

كاميرات الفضائيات حاضرة، تتوزّع بين تغطية الحفل، وتوجيه الأسئلة لمرشحنا حول برنامجه الانتخابي وفرصه أمام منافسه الأبرز خالد عزّام. أحاول تفادي الكاميرات قدر الإمكان، لا أريد لنفسي مصيراً معادلاً لمصير جونتر جراس، الذي اعترف في سنواته الأخيرة بانتمائه شابّاً إلى النازي، وحمله للسلاح معهم. لا أريد أن أدفع مستقبلاً ثمن نشاطاتي الراهنة. لذلك أترك الكاميرات لمرشحنا ورئيس التحرير التنفيذي واللواء وبعض أفراد الحملة، وأكتفي بالتواجد في الكواليس، ومتابعة الجمهور الذي يتكوّن في أغلبه من شباب العجوزة والزمالك والدقّي، يتمايلون على موسيقى الروك الشرقي.

***

أستيقظ من نوم عميق، لأجد أكثر من عشر مكالمات من زملائي في العمل. أتكدّر مع بداية اليوم وأحاول أن أخمّن أسباب هذه الاتصالات. ألفُّ سيجارة وأشعلها ثم أتصل بسكرتير التحرير الذي يستقبلني بمبروووك طويلة. أسأله عن سبب التهنئة فيقول إن ورقة عُلّقت عند الاستقبال تفيد بترقيتي مديراً للتحرير. في البداية أظنّها مزحة ثقيلة، وعندما أتنبّه إلى أننا في أول أيام الشهر الجديد أخمّن أنني ضحية لكذبة إبريل، لكن مع توالي المكالمات والتهاني، تتراجع احتمالية الكذب، وتتلاشى تماماً مع مكالمة رئيس التحرير التنفيذي الذي يبارك لي ويعلن خبر ترقيتي بقرار من رئيس التحرير شخصياً. يقول إنه سيتم استحداث صفحة ثقافية تعمل على نشر النصوص الأدبية فقط، بعيداً عن العمل الصحفي والتقارير والحوارات والتغطيات، وأنني سأتولى الإشراف عليها...

بداية موفّقة لليوم، تستدعي الاحتفال. ألفُّ سيجارة أخرى، أدخّنها في الحمّام وأنا أحلق لحيتي، مع كل شعرة تختفي من وجهي ينبت تساؤلٌ في رأسي حول الترقية المفاجئة، أفكّر في أن انضمامي للحملة كان أمراً صائباً وموفّقاً، أو ربما انصياعي للواء وانخراطي في عملية تطهير المؤسسة من الجواسيس! أغسل وجهي من بقايا كريم الحلاقة والشعرات الملتصقة فيه. الموبايل يواصل الرنين.

لا آبه به كثيراً فبعد قليل سأكون في المؤسسة وسأتلقّى التهاني وجهاً لوجه. ترى كيف سيكون موقف سامح عطوة؟

في الشارع أستوقف تاكسي بينما أقول لنفسي إن زمن الميكروباصات انتهى. لا يوجد مدير تحرير يركب الميكروباصات، وربما يجدر بي أن أشتري سيارة بالتقسيط. ثم أعود للتفكير في الترقية، وفي الزملاء الذين ستتغير معاملتهم، والجميلات المتورّدات اللواتي سيبدأن في مناداتي "أوستاز عيّاش" بينما يمططن الكلمات بشيء من الغنج. ترى كم سيصبح راتبي؟ أتوه بين الأفكار، سعيداً بترقيتي الأولى، التي قفزت فيها من محرّر ديسك، عابراً منصب رئيس القسم وسكرتير التحرير، مستقراً في موقع مدير تحرير. "للسعادة مذاق يشبه السكّر في الحَلْق" أقول لنفسي، بينما أترجّل من التاكسي أمام مبنى المؤسسة.

يستقبلني نانو وعوض والجعفري وتايسون بالتهاني والقبلات والأحضان، أفتح ذراعيّ على اتساعهما، متجاهلاً ومضات الألم أسفل ظهري، وأعانق الجميع فرحاً. موظّفة الاستقبال أيضاً تمنحني ابتسامتها الأولى منذ شهور، وتشير إلى القرار الرسمي المعلّق خلفي مباشرةً. التفت إلى الورقة وأقرأ: "تقرّر تعيين الزميل عمر عيّاش في منصب مدير تحرير الصفحة الثقافية بالموقع، بتزكية من مجلس التحرير". السطر المقتضب المبهج مشفوع بتاريخ اليوم وتوقيع رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير. إلى جواره مباشرة، وفي ورقة أخرى أصغر، أقرأ: "قرّر مجلس التحرير فصل المحرر محمد كرم أبو المكارم بسبب ما بدر منه من تصرّفات مشينة، أساءت للمؤسسة والعاملين فيها".

—17—

أزمة على الجبهة الجنوبية

الناسور العصعصي!

هكذا يبشّرني الدكتور. حدث الأمر بسرعة وفي أيام قليلة. تفاقم الوجع عند الجلوس في المنطقة المشتركة بين الظهر والمؤخّرة، ثمة شيء يشبه الحبّة. الدكتور يقول بنبرة عصبيّة إن ناسوري ملتهب، وإنه بحاجة لأمر من اثنين: فتح وتنظيف على السريع، أو عملية ناسور كاملة، وإنني جئته متأخراً. الدكتور يصفني بالمهمل والجاهل. أحاول أن أشرح له أني صحفي وكاتب وأن عملي يقتضي الجلوس المتواصل للكتابة، إلا أنه لا يتيح لي الفرصة، ويؤكّد لي أن العملية هي الحلّ الأمثل، وأنني سأستخدم مضادات ومسكّنات موضعية حتى أقرر إجراء الجراحة، ثم يطردني بصنعة لطافة.

في البيت تختلط عليّ الأفكار من المفاجأة المربكة: ناسور؟ والآن؟ هل أمتلك في رصيدي ما يكفي لتغطية تكاليف الجراحة؟ هل سيسمح لي رئيس التحرير التنفيذي بإجازة؟ وهل سأستطيع الكتابة أثناء النقاهة لأغطي مصاريفي؟ الدكتور قال إن نقاهة العملية تستغرق من أربعة إلى ستة أسابيع!

على موقع البحث أكتب "الناسور العصعصي"، فيظهر لي رابط يحمل عنوان

"الناسور العصعصي الشعري"، أقرأ: "الناسور الشعري (بالإنجليزية: Pilonidal cyst) والمعروف باسم الناسور العصعصي أو كيس الشعر، هو عبارة عن كيس أو قناة تحتوي على شعر متساقط يظهر في الغالب عند العقدين الثاني والثالث من العمر وموقعه أسفل الظهر، يعاني مرضاه من آلام وإفرازات دموية بصورة مزمنة، أو يظهر بصورة مفاجئة على شكل خرّاج مسبباً آلاماً حادّة وتورّماً أسفل الظهر. ولشرح كيفية حدوث المرض دعونا نتخيل أنه عند الجلوس يتمّ تحميل وزن الجسم كله على الأرداف. والشعر الذي يقع من الجسم نتيجة احتكاك الملابس يسقط في ما بين الأرداف، وقد يحدث أن تدخل الشعرة إلى داخل الغدد العرقية الموجودة في جلد هذه المنطقة والتي تكون نشطة أثناء هذه الفترة عند الرجال، وبمجرّد دخول الشعر يبدأ تكوّن الناسور، وعند تكوّن الناسور يصير الضغط داخله أقلّ من الخارج، ويبدأ بابتلاع المزيد من الشعر ويكبر. ومما يساعد أيضاً على حدوث ذلك كثرة الجلوس، استخدام المناديل الورقية للتنشيف، كثرة القيادة للسيارات. وهنا لنا إشارة تاريخية، فقد كثر انتشار هذا المرض عند الجنود في الحرب العالمية الثانية عند استخدام عربات الجيب".

التدخل الجراحي

"يتوقّف على درجة المرض، ففي حالة الالتهاب البسيط يتم إجراء جراحة لاستئصال الخلايا الالتهابية وتصريف الصديد وتنظيف الجرح وإزالة الشعر، ثم الخياطة، ولا تستغرق مدّة الشفاء في الحالات البسيطة أكثر من عدّة أيام لكن في حالة تكرار الالتهاب يفتح الجرح وينظّف ويترك مفتوحاً، ويتم عمل الغيار والغسيل المستمر باستخدام "فتيل" حتى يشفى.

ويُتّبع نفس الأسلوب في الحالات الالتهابية الحادة حيث يتم فتح الكيس وتصريف الصديد واستئصال الخلايا الالتهابية وإزالة الشعر الميت، وفي هذه الحالة لا يتم خياطة الجرح ويترك مفتوحاً مع الحرص على نظافته حتى يتم

الشفاء، والذي يستغرق فترة تستمر من ستة إلى عشرة أسابيع يلتئم خلالها الجرح تماماً".

ياللرعب!

هذا الدكتور إذن يريد أن يشق لي مؤخرتي ويضع داخلها فتيلاً! أحّيه أحّيه.

***

يبدو أنني سأحتاج بعض الوقت للاعتياد على الهدوء في مكتبي الجديد. يشاركني في الحجرة ماركو عادل مدير تحرير الصفحة القبطية بالموقع. ماركو هادئ بطبعه، لا يتكلّم كثيراً. بين الوقت والآخر أغادر الغرفة وأزور صالة التحرير. أختلس النظر لساقَي هالة جميل. أو أدردش مع إيمان فرغلي ومحمد منصور وجيهان وزينة عتريس، وأناقش محرري الرياضة في التشكيل الذي خاض به المنتخب مباراته الأخيرة. أتمشّى بين الأجهزة عاقداً يدي خلف ظهري كمراقب في لجنة امتحان. أتعمّد المرور خلف سالي عودة فقط لأشم رائحة عطرها الخافت الناعم. ألقي بنظرة متعالية تجاه سامح عطوة الذي ينظر بعيداً كلّما التقت عينانا. أنزل إلى بسطة السلم عند الأمن في المدخل، فأجدهم يتابعون مباراة في الدوري، أقف لدقائق مع عوض ونانو وسبيكة لأتابع اللقاء. قبل أن أتذكّر أن هناك تلفزيون في مكتبي الجديد، فأعود للغرفة. يرميني ماركو بنظرة وابتسامة ثم يواصل صمته. أشغّل التلفزيون، وأجلس على الكرسي ببطء، أضع مؤخّرتي بالتدريج على الكرسي لأتفادى آلام الناسور التي تفاقمت. ثم أتابع المباراة. تسديدة قوية من لاعب اسمه أحمد كرم، تحيلني فوراً إلى محمد كرم وقرار فصله. أتذكّر اللواء، وعم محمود الساعي والتقرير الذي سلّمته له. أشعر بغصّة. أغيّر القناة. أجد برنامجاً يستضيف رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير. يطلب ماركو أن أترك البرنامج. فأترك البرنامج. وأتابع الحلقة لدقائق قبل أن أخرج مجدداً إلى صالة التحرير.

على هذا النحو تنقضي أيامي الأولى في موقعي الجديد. أسبوع واحد فقط.

في آخره أتقدّم بطلب للحصول على إجازة مرفق طيّه تقرير طبّي عن حالتي الصحية. رئيس التحرير التنفيذي يؤكّد أنه لم يكن هناك أيّ داعٍ للتقرير الطبي، وأن طلباً شفهياً كان سينهي الأمر. يتمنّى لي الشفاء، ويؤشّر بالموافقة على الطلب ثم يعيده لي. أصوّر منه عدّة نسخ، أسلّم واحدة للسكرتارية لترفعها لمسؤولي الموارد البشرية، أسلّم واحدة أخرى لعم محمود ليمرّرها للواء. وأحتفظ بنسخة لنفسي.

***

دكتور التخدير اللئيم يستفزني:

– يا ترى يا أستاذ عُمر كرشك الرهيب دا يمنعك إنك تاخد وضع كإنك علامة >، تقدر تعمل كدا؟

أشعر بالإهانة، وتكبر في رأسي، فأنحني لآخذ هذا الوضع، ليباغتني الدكتور بحقنة في عمودي الفقري، ويطالبني بألّا أتحرّك. أشعر بالحقنة وهي تخترق الغضاريف التي تفصل بين فقرات العمود، والدكتور يؤكّد عليّ بألّا أتحرّك. أحسّ بالسائل وهو ينسرب في أصلي، ويسري في روحي، والدكتور يصرّ على ألاّ أتحرّك. وبعد دقيقتين بالعدد، أفقد إحساسي بنصفي السفليّ، تماماً.

ممرض ضخم الجثة وممرضة عجوز يتولّيان مهمة قلبي على بطني، وبعدها يشرع الدكتور في تمزيقي. أسمع بوضوح أصوات المشارط وهي تقطّع لحمي، والمقصّات وهي تحفر في جسدي ممراتٍ وخنادقَ، وتعليمات الدكتور للممرضين بأن يناولاه أداة أخرى ليواصل بها تشريط مؤخّرتي المسكينة. كلّ هذه الأمور تجعلني أحاول أن أهرب بخيالي لأيّ شيء، إلا ما يحدث في حدودي الجنوبية. أقول لنفسي: طيزك تحت القصف الشديد يا عيّاش، لو شاء هذا الممرض أن يحشر إصبعه المشعر عقلة عقلة فيك لما منعه أحد، وهذه الممرضة الطاعنة تستطيع أن تتفل في مؤخّرتك كنوع من طلب البَرَكة، بل إنك لا تستطيع أن تدفع ذبابة قادها هواها للتجول بين إليتيك! طيزك في

خطر، فَقْحَتُك، كما يقول الإماراتيون، تعاني. جَعبَتُك، بالسوداني، قيد الإقامة الجبرية. قَعرُك، في لسان الجزائريين، يتم دكّه دكّاً دكّا... في تباين اللهجات العربية أجد ضالّتي، فأتنقّل بين المصطلحات والألسنة... تهويمة سريعة على الخريطة، أشعر خلالها أن رأسي ثقيلة، وأن المخدّر النصفي تسلّل بشكل أو بآخر إلى دماغي. أسمع مواءً خافتاً آتياً من مكان لا أعلمه، ربما من قفاي. في آخر الأفق أرى قطّة سوداء تقترب مني بسرعة مخيفة حتى تستوي أمامي مباشرة وتقول: ليست المؤخّرة فقط يا سيد عيّاش، خذ عندك بني جنسي مثلاً، يقول المصري عني "أُطَّة"، وفي الخليج يقولون "جَطْوَة" بجيم غير معطّشة، وفي سوريا يسمّونها "بِسّة"، أما السوداني فيقول "كاديسة"، و"بْسَيْني" في لبنان، بينما يقول العراقي "بزونة" والتونسي "قطُّوس"، وكلهم عرب وكلنا سنّوريات أفلا تعقلون؟ أندهش من سعة اطلاعها وشعورها القومي المتعالي، هازئاً أعلّق: والله يا بوسي؟ فتغضب القطّة السوداء وتصفعني كفّاً وهي تقول: اصحَ. وكفاً آخر أقوى، كان كفيلاً بإيقاظي. أنظر حولي لأجد الممرضة العجوز تقول لي: حمداً لله على السلامة.

الرؤية غير واضحة، هذا ما ألاحظه أثناء نقلي لغرفتي، ثمّة هالات أثيرية تحيط بأضواء الردهة، بينما أسمع الأصوات كأنما هي صادرة من قعر بئر، أو من قعري المشروخ، والدّوخة التي تغشى رأسي لا تترك لي الفرصة لتبيّن بعض الحقائق: هل انتهت العملية؟ ولماذا أشعر بالغثيان والعطش؟ وكيف أنام على ظهري بينما ثمة جرح غائر فيه؟

في غرفة المستشفى تقول الممرضة: "ناسورك كان ملتهب ومادد لجوّة كإنه تِعبان، بعد الشر عنك كان قريب من العمود الفقري ولو اتأخّرت كام يوم كان هيوصل له، ولأنه كان التهاب كبير الدكتور خدّرك كلّي، عشان يعرف يشيل كل الخلايا البايظة". تطلب مني أن أنام وتؤكّد أني سأستطيع مغادرة المستشفى في اليوم التالي. توضّح أن الجرح مفتوح وسيتم تطهيره يومياً بفتيل طبّي معقّم لامتصاص الالتهابات والإفرازات وإبقائه نظيفاً حتى يلتئم، وأخيراً تنهض

وتحضر برطماناً بداخله شيء بين الأبيض والأصفر، تقول: "ناسورك يا بيه".

بعينين غائمتين، وبصداع ودوخة أتأمّل البرطمان، أقرّبه من عيني، أحملق فيه، ثمة شيء يشبه الدودة داخل البرطمان، خيط طويل وسميك من مادة تشبه الدهن، تنتهي بنقطتين بين الأسود والأخضر، كأنه جنين الأفعى، أم عساني أحلم بفعل المخدِّر؟ أشعر بقرف وامتنان، أشعر بدوخة وعطش. أطلب منها أن تتخلّص من هذا الشيء الذي استخرجوه من مؤخّرتي. تومئ برأسها. تأخذ البرطمان وتمضي.

***

لم أجد سوى فتاة تعمل في صيدلية قريبة من البيت لتغيّر لي يومياً على الجرح، أنام على بطني وأكشف لها صاغراً عن طيزي، تسحب الفتيل المدسوس في الشق البالغ طوله 11 سم بعمق 5 سم، تلقيه في كيس فارغ، تسكب جرعة ماء أوكسجين فيفور جرحي بما فيه من إفرازات، وتكاد روحي تفيض من عيني ألماً. بعدها تجهّز غياراً طبيّاً، من صيدليّتها طبعاً، وتغمره بالمطهّرات والبيتادين ثم تحشره مجدداً في شقّي. يشرمني الوجع، فتهوّن عليّ وتؤكد أني تجاوزت الغيار الثاني من أصل 40 – 50 غياراً! ألعن التاريخ في سرّي، وألعن الشعر والغدد العرقية والجرّاح ودكتور التخدير. من تحت المخدّة استخرج محفظتي لأناولها أجرها، أتّفق معها أن تأتي في اليوم التالي في نفس الموعد لتلعق لي جرحي وتنظّفه.

بعد أيام، تنهار ميزانيّتي. تكلفة الجراحة ومصاريف الأدوية وفترة النقاهة مضافة إلى أجر الممرضة قضت على مدّخراتي. وأقرب دفعة مالية مرتقبة على بعد عشرين يوماً من الآن. أشعر بالإحباط، وبأن حساباتي كانت خائبة وساذجة بشكلٍ مخزٍ، إذ لم تصمد خطتي سوى عشرة أيام.

أفكر في اللجوء إلى بطّة، أتصل بها ليرد عليّ زوجها ويخبرني بأنها في المستشفى وستلد خلال ساعات. يطمئنني عليها ويقول إن أمي معها وإنه في

الطريق إليهما. أردد عبارات معلّبة تتمنى لها السلامة وتتمنى الخير للمولودة المنتظرة ثم أغلق الخط. لا أجني من المكالمة سوى خسارة تكلفتها وفقاً للتعريفة الدولية.

بالورقة والقلم أجد أن ميزانيتي لن تستوعب أجر الممرضة لأكثر من زيارتين قادمتين. يقشعرّ جرحي وأشعر بألم انكماش الجلد الملتهب. أتحامل على نفسي وأنهض لألفّ سيجارة، أقلّب المشكلة على وجوهها، لا طريق أمامي سوى التخلّص من الممرضة، وتقليل الدخّان، وربما بعد أسبوع أتمكّن من الوصول لبطّة لأطلب منها دعماً عاجلاً.

في منتصف السيجارة، التي عملت على تهدئة الألم، أسمع صوتاً خافتاً قادماً من قاع جمجمتي يهمس بإسم نُورا.

نُورا!

ما الذي جاء بك الآن؟ وما علاقتكِ بالتمريض لتتولي عملية التغيير على الجرح؟ ثم إنكِ أنت بالذات ضربتني وأنا في كامل قواي، فماذا ستفعلين بي وأنا طريح الفراش أقضي أيامي مستلقياً على بطني أتأمّل النقوش في ملاءات السرير، حتى حفظتها، وعرفت كل خيط فيها؟ يرد عليّ الصوت الغائر: "فرصة لتكفّر عن ذنبها، فرصة لتوفّر مصروفاتك وتضبط ميزانيتك، وقبل هذا وذاك فرصة لتفعل كما يفعل خلق الله قبل أن يضمر عضوك ثم يذبل ويسقط".

أنهي السيجارة، وأقوم لآخذ المسكّن والمضاد الحيوي، ومن ثم أرجع إلى الغرفة وأستلقي على بطني مجدداً، وأنا أفكّر في وجاهة هذا الاقتراح الداخلي.

—18—

نُورا VI

الصُّحبة والوَنَس

حتى الرابعة عشرة، عانيت من التبوّل اللاإرادي. كنت أقوم من النوم كل صباح راسماً تحتي خريطة لأحلامي، بقعة كبيرة من البول، التي تسبّبت في اِصفرار ملاءات السرير والمراتب من تحتها على حد سواء. أبي وأمي حاولا كل ما في وسعهما. ليحلّا الأمر، طالباني بألّا أشرب أيةً سوائل قبل النوم بساعتين على الأقل، ووعداني بألعاب وحلوى في كل نهار استيقظ فيه جافّاً، وعندما يئسا من محاولاتهما الفاشلة، وقبل أن يقررا اصطحابي لدكتور متخصص، حصلت المعجزة وتوقّفت عن التبوّل أثناء النوم، منهياً تاريخاً من الفضائح التي رآها وشمّها كل أقاربنا الذين بتُّ في منازلهم أو باتوا في غرفتي.

أتذكّر هذا التاريخ البولي وأنا أعاين الملاءة التي ترفعها نُورا عن سريري، ملطّخةً ببقعتين متداخلتين من البيتادين وماء الأوكسجين أحالتا لونها إلى أصفر ضارب للحُمرَة. تأخذ نُورا الملاءة وترميها في الغسّالة. ثم تعود لتواصل تنظيف الغرفة.

قبل يوم، وبعد ساعات من التردد هاتفتها. قالت إنها لا تصدّق أني أكلّمها. وقلت إني متضايق من نفسي لأني أكلّمها. بَلعَتْ الإهانة، واستمعتْ إلى حكاية ناسوري الذي خلّف خندقاً في مؤخّرتي. وعلى عكسي، لم تتردد في قبول طلبي بأن تتولّى مهمة تنظيف جرحي والتغيير عليه بشكل يومي.

عند الحادية عشرة ظهراً رنّت الجرس. فتحتُ الباب لأجدها محمّلةً بأكياس متفاوتة الأحجام. سلّمتْ ودخلتْ إلى غرفتي مباشرة وبعد دقيقة خرجت وهي ترتدي ثياباً يبدو أنها مخصّصة لمهام التنظيف المنزلية. قلت:

– طيب اقعدي اشربي حاجة الأول.

قالت:

– مفيش وقت. والشقّة زي ما انتا شايف...

وها هي منذ ساعتين، تدور في الشقّة كنحلة. تمسح الأرض بالماء والصابون، تغسل الملابس ثم تنشرها، تنظّف المطبخ وتجلي الصحون في الحوض. تفتح النوافذ، وتعلّق أعواد بخور بنجفاتي في أرجاء الشقّة. تفتح الباب لتنفض السجّاد في الطرقة الخارجية. كل ذلك دون أن تبادلني كلمة واحدة. وأنا أيضاً لا أعرف بالضبط ما الذي يتوجّب عليّ أن أقوله. هل أفتح الموضوع القديم وأقول أني تجاوزته خلاص، أم أشكرها في هدوء، أم ربّما عليّ أن أحافظ على صمتي؟ أفكّر طويلاً بينما أتأمّل ساقيها المكشوفتين والمبتلتين. إلّا أنها تقطع أفكاري عندما تقترب مني وهي تحمل كيس قمامة أسود وتقول بملامح قرفانة:

– ارحم نفسك يا عُمر. الشّقة منتّنة. هات حد ينضّفها مرة كل شهر على الأقل عشان صحتك.

كالعادة تبدي عدم رضاها عن مستوى نظافة الشقة وتطلق التعليقات الهازئة. نُورا أكّدت أن جرحي سيلتئم ببطء لأنني أعيش في مزبلة، فغرفتي مليئة بالغبار ورماد السجائر المتغلغل في نسيج الستائر والملاءات، وباقي أرجاء الشقة ليست في حالٍ أفضل. هذا بخلاف الأكل غير الصحّي الذي أتناوله وتتناثر بقاياه في الزوايا، الكثير من سندوتشات الطعميّة، وبقايا اللانشون والبسطرمة، لا أثر

للخضروات في الثلاجة أو المطبخ.

لا أعرف بماذا أردّ عليها. غير أنني أجيب بشيء من العصبية:

– "ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى"!

تبتسم، فيتملّكني الغيظ من ابتسامتها. أشعر وكأنها تقول لي بلا كلام: "قلبك عامر بالإيمان يا روح أمك". فأبلع لساني وأسكت.

بعد قرابة الساعات الأربع من العمل المجهد، تنهي نُورا مهمة تنظيف الشقّة. تدخل إلى الحمام وتستحم. بعد فترة تخرج بينما يتبعها شذى الصابون والشامبو. تسألني:

– ياللا عشان أغيّر لك ع الجرح؟

أومئ برأسي، وأقوم ببطء متّجهاً إلى غرفتي، أجلب كيس الغيارات الطبّية والأدوية، أستلقي على بطني، وأشرح لها تفاصيل الأمر، وأطالبها بالترفّق مع مؤخرتي الجريحة، ثم، أشدّ بنطلوني للأسفل، وأكشف لها عن جرحي الملطّخ بالبيتادين، يتوسّطه الغيار الطبّي. تبدأ نُورا في سحب الغيار القديم. بيدي أمسك إليتَيّ وأباعد بينهما لأوسّع الفجوة وأقلّل احتكاك الغيار بجانبَي الجرح. ترمي نُورا الغيار في السلّة التي جهّزتها، ثم تملأ غطاء قنينة البيتادين بالسائل البنّي وتدلقه في الجرح. أُولْوِل وأُوحْوِح بسبب الحَرَقان. بعد نصف دقيقة، تحين اللحظة الأصعب: إدخال الغيار في الجرح، برفق تحاول نُورا أن تسقطه في الشق في مؤخرتي. الألم يعصرني، فأجزّ على أسناني. العرق في جبهتي وخديّ ينطبع على المخدّة التي أدفن وجهي فيها. عقلةً عقلة يتسلل الغيار إلى داخلي. توتُّر نُورا أيضاً يتسلل إليّ وهي تحاول جاهدة أن تجعل يدها خفيفة كممرضة محترفة، فتمعن، دون قصد، في إيلامي، وتقول بعد كل ضغطة على الغيار "معلشّي معلشّي"...

أَخيراً، وبعد دقيقة من العذاب والمهانة والإذلال. تنقر نُورا بإصبعها على إليتي وتقول:

– خلاص. غطّي.

فأفلت إليتيّ، لتحتضنا الغيار الرطب بالمطهّرات. وأزفر مطلقاً آهة ذات حشرجة.

متثاقلاً أنهض من رقدتي، بعينين حمراوين دامعتين، وعرق غزير وأنفاس لاهثة، أنظر لنُورا. أتناول يدها وأطبع عليها قبلة طويلة وحزينة وتائهة. ثم لا أفلتها، أضعها على جبهتي وأغمض عيني محاولاً أن أستجمع أنفاسي. تستكين يدها في يدي لدقيقة. قبل أن أفتح عيني وأرفع رأسي لأقول:

- شكراً
- سلامتك
- الله يسلّمك. هاتيجي بكرة؟
- هاجي كل يوم لحد ما نطّمن على طيزك.

وتضحك... فأضحك.

—19—

محفوظ عجب

أتابع العمل من البيت. عملية استقبال النصوص وقراءتها وفرزها لا تقتضي الذهاب إلى الجريدة، وحتى عملية رسم الصفحة عندما يقرر رئيس التحرير التنفيذي، على فتراتٍ متباعدة، نشرها ورقياً إلى جانب النشر الإلكتروني، أقوم بإنهائها بالتواصل هاتفياً مع قسم الرسم والتنفيذ. الأزمة الوحيدة التي سبّبها غيابي كانت انتشار الأقاويل حول جودة النصوص التي أنشرها. إيمان فرغلي أخبرتني أن سامح عطوة يروّج أقاويل مفادها أني أوافق على نشر بعض النصوص الرديئة، لأني أرتبط بمصالح مع مؤلّفيها، فبعضهم يتولّى الإشراف على منابر ثقافية وصحفية أخرى، وهم بالمقابل يسمحون لي بالنشر في صفحاتهم، وهو الأمر الذي يعود عليّ بمكاسب مادّية.

لا بأس يا سامح الكلب، عشرة أيام على الأكثر وستجدني أمامك. أفكّر في طريقة لتأديبه. غير أنني سرعان ما أنساه عندما أتذكّر بطّة التي لم أتّصل بها لتهنئتها بالمولودة الجديدة. أجهّز ورقة باحتياجاتي التي سأطلب من السوبرماركت إرسالها، على رأسها كارت لأشحن به رصيدي وأتّصل ببطّة.

أشغّل اللابتوب. أشعل سيجارة. أفتح صفحة براوزر دون أن تكون لي

أهداف واضحة. تلقائياً أتّجه إلى الفيس بوك حيث أجد فيديو لشجار شوارع فأفتحه وأتابع اللكمات الدامية التي كالها الرجلان لبعضيهما. أغلق الفيديو وأسجّل إعجابي بلايك. أجد اسم سامح عطوة في قائمة المعجبين بالفيديو، أضغط على اسمه فتظهر لي صفحته تسبح في خلفية زرقاء. يكتب عطوة في صفحته بوستات كثيرة على شاكلة: "أفرجوا عن سيد الهوّاري" و"حملة "إلزم حدودك" لرفض العنف ضد الصحفيين"... فلا أجد إلا أن ابتسم.

وسط تلك الشعارات أقرأ: "أستمتع منذ الأمس بقراءة رواية **دموع صاحبة الجلالة** للكبير موسى صبري. محفوظ عجب نموذج للتاريخ عن الصحفي العرص المتسلّق الوصولي. نحن في زمن محفوظ عجب". لا يجتذب البوست سوى سبعة معجبين. أنزل إلى الأسفل لأقرأ التعليقات:

مي نادر: موجّهة ☺

سالي عودة: طب ما تتجدعن كدا وتقول لنا أسامي.

سامح عطوة: الموضوع مش محتاج أسامي يا سالي. بصي حواليكي كويّس.

محمود عبد الله: نحن في زمن المسخ.

جيهان أبوزيد: بس يا بنات. أنا عارفة هو يقصد مين... لصوص.

سالي عودة: لصوص؟!

سامح عطوة: أو نصوص ☺

محمد منصور: ع ع؟

سامح عطوة: إنبوكس.

هل هذا تلميح أم تصريح يا أولاد الكلب؟

يتفاقم داخلي إحساس بالقهر، حتى الأصدقاء ما أن تولّيهم ظهرك حتى يشرعوا في نهشك. أفكّر في جيهان التي لا تتورّع عن الابتسام في وجهي ثم

تُعمل لسانها كالمشرط في غيابي.

أغلق صفحة سامح عطوة على الفيس بوك، ثم أفتح محرّك البحث، أجري بحثاً سريعاً عن محفوظ عجب، في أحد الروابط أقرأ التعريف التالي: "الرواية تحوّلت إلى مسلسل إذاعي، ثم مسلسل تلفزيوني عرف المشاهد العربي من خلاله كيف باع هذا الصحفي أهله الفقراء، وكيف ضحّى بشقيقته الطيّبة، ثم رئيسه في العمل، قبل أن يتسبب في سجن الفتاة الأرستقراطية التي أحبّته. عجب حصل في مقابل ذلك كله على مكاسب شخصية ضخمة تمثّلت في الشهرة والمال والاقتراب من السلطة".

أشعل سيجارة وأنا أقول لنفسي: "الجريدة لم تعد تتسع لكلينا يا سامح الكلب. إمّا أنا أو أنت". أغلق الصفحة، ومجدّداً في مربع البحث اكتب اسم سامح عطوة، وأشرع في التفتيش عن المواد الصحفية المسجّلة بإسمه. لنرى من أين سنباغته. هذا الفسل.

***

صوت أذان الظهر يوقظني. ذبابة سخيفة تطن فوق وجهي مباشرةً. أهشّها وأنهض. أشعل سيجارة وأتأمّل الفوضى على المكتب. أجندات وأوراق وبقايا مغلّفات شيكولاتة وسجائر ورماد وقدّاحات فارغة. من وسط الفوضى انتشل القلم. ثم أقف أمام ضلفة الدولاب حيث علّقت الجدول الذي أدوّن فيه عدد مرات الغيار على الجرح منذ تاريخ الجراحة. أستبق الأحداث وأضع علامة فوق رقم ثلاثين بأربع خانات. أقول لنفسي: "هانت". بعد ساعتين من الآن ستأتي نُورا لتغيّر على الجرح للمرة الرابعة والثلاثين.

أجهّز كوباية شاي بليمون، وألفّ سيجارة ثم أشغّل اللابتوب، قبل أن أفتح صفحة الإنترنت، أفتح صفحة وورد وأكتب:

كم يوماً بقي في مأساة الغيار على الجرح؟ ماذا سأفعل بسامح

عطوة؟ متى سأتصل ببطة لأبارك لها على سلامتها ومولودتها وأطمئن على ماما؟ ترى كم سيرسل لي الموقع الخليجي هذا الشهر؟ ما هو قياس حمّالة صدر نُورا؟ هل سيفوز رجلنا في الانتخابات يا ترى؟ وماذا سآكل على الغداء؟

رنين الهاتف يقطع تيار التساؤلات. رقم مجهول يومض على الشاشة، أردّ لأجد اللواء.

بعد السلامات والاطمئنان على صحتي يذكر سيادته اسماً آخر ويطلب منّي متابعته. أقول:

– تؤمر معاليك.

يردّ:

– على مهلك وما تضغطش على نفسك.

أشكره على ذوقه. ثم ينهي اللواء المكالمة السريعة التي ترسم لي ملامح أيامي القادمة.

***

تقول نُورا وهي تقصّ الغيار بالطول:

– كنّا فين وبقينا فين. الأسبوع اللي فات كنّا بنقصّ الغيار من نصّه، دلوقتي أنا هستخدم تلته بس. يعني جرحك لمّ لحد تلتينه.

– شكله أحسن؟

– يووه. إنتا كان عندك أخدود يابني... دلوقتي يا دوبك بقا بعمق عقلة صباع ويمكن أقلّ.

حتى أثناء إدخالها للغيار المشبّع بالمطهّرات في الجرح، لم أعد في حاجة للمباعدة بين إليَتيّ، لأن الأمر لم يعد مؤلماً مثلما كان، أتيقّن من ذلك عندما يعود النشاط لنصفي السفلي، وأبدأ في الانتصاب مجدداً بعد أيام طويلة قضيتها

معزولاً عن جبهتي الجنوبية، حتى أنني صرت أنسج الحكايات الخيالية عن قضيبي الذي أُخذ أسيراً، أو تعرّض لجرح أعجزه، أو ربما أصابته الحروب والأهوال التي عاينها تحدث بالقرب منه بنوع من الصدمة وعلى إثرها قرر أن يتدروش ويزهد ويعتكف.

لا تعتكف يا ولد. نُورا لا تزال في الجوار.

(2)

فلنَمُد الخطَّ على اسقامتِه

الحَياة... بجرعاتٍ كبيرة

—20—

تقرير

الرّجل كسّر الدنيا. كسّر الدنيا حرفياً، اكتسح دائرته محقّقاً نتيجةً مخيفة. مجموع الأصوات التي جناها منافسوه بمن فيهم خالد عزّام لم تُحصِّل رُبع الأصوات التي حصدها مرشحنا. هذ بخلاف كونه ثاني أعلى مرشحي انتخابات مجلس الشعب حصداً للأصوات على مستوى الجمهورية من أقصاها إلى أقصاها.

وأنا لست متفاجئاً.

أقول ذلك لهيام الشورى، التي تجلس معي في مكتبي، في غياب ماركو، لتعرض عليّ نصاً لها تريد أن تنشره في الصفحة الأدبية التي أشرف عليها.

– بس كتير أوي، الأرقام مش طبيعية إحصائياً. دا كإن الدايرة كلها راحت صوتت له.

– إنتي عارفة بقا يا هيام إنه راجل خدوم وبيخلّص للناس الغلابة دي مصالحهم وحقوقهم وبيساعدهم في العلاج والجواز وتوظيف ولادهم...

– أيوه تمام. بس نص مليون صوت دا رقم عظيم. دا الجرنال نفسه مابيوزّعش خمسين ألف نسخة في اليوم.

– وإيه علاقة دا بدا؟

لأكثر من ساعة تواصل هيام محاججتي، ولا تملّ من إبراز قدرتها على توجيه الانتقادات لرئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير، كأنّما تلمّح إلى أنني لا أمتلك تلك الرفاهية لأني من حواريي الرجل. تظن هيام الشورى أنها تضعني في موقف محرج، وتثبت ولاءها الأبدي لرئيس التحرير التنفيذي. هي لم تكن تعاملني كذلك في أيامي الأولى بالمؤسسة، لم أكن ندّاً لها، كنت مجرد محرّر ديسك منطوٍ. لكن الوضع اختلف الآن، ربّما، لذلك، تحاول الشورى مناكفتي.

بعد انصرافها، أستدعي عم محمود، أعطيه مبلغاً ليشتري فلاشة ميموري من أقرب محل للإلكترونيات. وأستغلّ غيابه في نقل التسجيل الصوتي من المسجّل إلى الكومبيوتر. ثم أفتح صفحة وورد وأكتب:

> وفقاً لتعليمات معاليكم، قمت بمتابعة المحررة هيام الشورى رئيسة قسم الحوادث. ومرفق بهذا التقرير تسجيل صوتي لنقاش دار بيني وبينها اليوم الموافق 22 من الشهر. وفي التسجيل سترصدون تشكيكها في نتائج الانتخابات في دائرتنا. أيضاً سترصدون مجاهرتها برأيها السلبي في الأداء المتوقّع لرئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير كنائب في البرلمان بحجّة حداثة عهده بالعمل السياسي.
>
> وفي حوار آخر لم يتسنّ لي تسجيله زعمت هيام الشورى أنّ أيّ طعن كفيل بإلغاء النتيجة لو نُظِر أمام لجنة قضائية نزيهة، لأن الإنفاق الدعائي تجاوز سقف الميزانية القانونية. وزعمت أيضاً أن حضرتك بالتحديد بالتعاون مع ضبّاط شرطة آخرين من رتب كبيرة، وبعض رجال الأعمال، تعملون على تجنيد رجالكم لحشد أصوات الناخبين في الأحياء الفقيرة مقابل مبالغ ماليّةً.

أحفظ المكتوب وأغلق الصفحة. وفي اللحظة التي أشعل فيها سيجارة، يصل

الساعي. أسمح لعم محمود بالاحتفاظ بالجنيهات الباقية من المبلغ. استبقيه ريثما أنقل التسجيل إلى الفلاشة وأطبع الورقة. أضعهما في مظروف وأغلقه بعد أن أبلل طرفه بلساني، ثم أقول لعم محمود:

– لإيد اللوا مباشرةً

يردّ بسرعة:

– حمامة يا عيّاش بيه.

– طير.

***

بعد أسبوع ستصل أمي. الحاجّة الطيّبة التي رأيتها لآخر مرة قبل سنة في آخر زياراتها للبلد. بعدها سافرت لتقضي ستة أشهر هناك في كاليفورنيا مع أختي. وكان من المقرر أن تعود إلى مصر وتقضي أسبوعين ثم تطير مجدداً إلى أميركا، إلا أن موعد كسرها للشهور الستة المنصوص عليها في تأشيرتها تزامن مع الإجازة السنوية لأختي وزوجها، ولذلك اصطحباها معهما في الجولة التي قرروا أن يقضوها في أميركا الوسطى، بعيداً عن الوضع المتوتر في مصر. رحلتهم الكاريبية بدأت في المكسيك، وانتهت في كوستاريكا، مروراً بجواتيمالا والسلفادور ونيكاراجوا، قبل أن يعودوا مجدداً إلى كاليفورنيا.

أمّي، الحاجّة أم عُمر، زارت تلك البلدان البعيدة. فيما أقبع أنا هنا في المحروسة منتظراً قدومها المرتقب بعد أيام. يذكّرني ذلك بسفرتها الأولى إلى أميركا. يومها كنت أجلس في قعدة حشيش في غرزة بمصر القديمة، وكانت أحجار الكيف المتعاقبة قد تسبّبت في احمرار عيني، عندما وصلتني رسالة على موبايلي كان نصّها كالتالي "الحاجّة: الحمدلله وصلت مطار هيثرو... ساعتين طرانزيت وبعدها نعبر المحيط الأطلسي إلى أميركا. دعاوتك".

في تلك الليلة دُهشت من المفارقة بين كلمتي "الحاجّة" وهو الاسم الذي سجّلت به رقم أمي في أجندتي، و"هيثرو" ذلك المطار اللندني. أخذتني

تهويمات الحشيش إلى مفارقة وجودي في أحراش مصر القديمة مع سيد بانجو والمعلّم جِنّش، بينما تتجول أمي بعباءتها السوداء فوق الكوكب، من القاهرة إلى أثينا إلى لندن في طريقها إلى ماونتن فيو بكاليفورنيا.

أتذكّر تلك التفاصيل فيما أعيد قراءة رسالتها على موبايلي I will arrive to Cairo airport on 19th 2:00 pm. Wish to meet you soon my dear son. Will send you the details soon. فأتساءل عن حجم التغيّرات التي طرأت على الحاجّة بعد وفاة أبي، وعن تأثير البيئة في وعي الإنسان وطريقة كلامه.

الآن أصبح عليّ أن أرتّب البيت، وأهتم بزرعات الحاجّة المنسيّة في البلكونة. أربعة أصيصات تحتضن نبتات تحتضر منذ هجرتها الحاجّة وتركتها لي أنا الذي بالكاد أستطيع أن أعتني بنفسي.

مرحبتين يا حاجّة.

—21—

نُورا VII

في العجلة الندامة

لم تنقطع لقاءاتي مع نُورا رغم اكتمال شفائي منذ أيام. نجلس في بلكونة الشقّة أو في مطعم بالدقّي أو في كافيتريات الأوبرا... أنا أحب الأوبرا. أحب حدائق الأوبرا وأشجارها وتماثيلها وكافيتيرياتها وحتى زوّارها، وأحب جلسات النميمة التي نعقدها كلما التقينا هناك. نجري مسحاً للمكان، نحدد الهدف، نبني له قصة وهمية ننسجها في ثوانٍ بخبرة الحكّائين والنمّامين الكبار، نمّامي الزمن الجميل، ثم نُدخِل هدفنا، الذي لا نعرف عنه شيئاً ونزعم أننا نعرف عنه كل شيء، في مجموعة علاقات خيالية هي الأخرى، نورّطه في قصة حب من طرف واحد، أو نؤلّف له ماضياً مليئاً بعقد الطفولة، نستقرئ لغة جسدهـ/ـا، ولا نمشي قبل أن نوفّق رأسين في الحلال، أيّ رأسين. الجالس هناك في أقصى اليمين ضمن مجموعة من الممثلين الهواة، مع تلك القابعة تحت الشمسية رفقة شاب لا يبدو لائقاً لها. نحذف الشاب غير اللائق، ونلغي جوقة الممثلين الهواة، نضع الولد مع البنت، ونبني رواية شفوية أنا ونُورا راوياها – نسمّي ذلك

تدريبات على البوليفونيّة – ثم ننتقل إلى قصة أخرى، وثالثة... ورابعة... إلخ.

واليوم نحن لم نقصّر، لم نترك الكثيرين دون أن ننم عليهم. صحيح أننا لم نكسر الرقم القياسي المسجّل باسمنا أيضاً، لكننا – الله شاهد – لا ندّخر جهداً في ممارسة حضورنا عبر تلك الطريقة...

نحن كاتبان يا نُورا... والكاتب يقتات على النميمة... تعلّق:

– إنتا كاتب. أنا مش فاكرة إمتا كانت آخر مرة كتبت. الشغل والبنت واخدين كل وقتي.

أذكّرها مبتسماً: "وطيزي". فتضحك. أشكرها مرة أخرى، على مجهودها الهائل الذي بذلته على مدار شهر كامل. تسعة وعشرون يوماً بتسعة وعشرين غياراً على الجرح الذي طاب تماماً ولم تبقَ منه سوى ندبة خفيفة. لم تعتذر نُورا عن مهمّتها اليومية سوى مرّة واحدة بسبب مرض بنتها. يتملّكني إحساس بالامتنان تتخلّله ومضات من الشعور بالذنب، لذلك أطالبها بالتركيز في الكتابة مجدداً، وأشرح لها أني سأحاول إلحاقها بالعمل معي في المؤسسة تحت عيني لتتقاضى راتباً جيداً ويتوفّر لها وقت كافٍ لتكتب. أطلب منها أيضاً قصيدة لننشرها في صفحة النصوص التي أشرف عليها. أكرّر شكري. وأؤكّد لها أن همّاً من همومها الثلاثة قد انزاح... لكنها تقاطعني:

– بس أنا عايزة أشوفك كل يوم.

تأخذني المفاجأة لوهلة، هذه جملة أحلى من قصيدة يا نُورا. بعد ثوانٍ أبتسم وأرد:

– يبقى تيجي تزوريني بكرة في الحفرة.

***

لنُورا ساقان طويلتان وسمّانتان ممتلئتان، لم أتنبّه لهما من قبل، ربما لأنها ترتدي البناطيل الفضفاضة، أو لأنني كنت أركّز في تطلّعاتي الشبقيّة على مساحات أخرى من تلك الجغرافيا الغامضة، كالنهدين النافرين من تحت الثياب، أو العنق

الرقيق الناعم مثلاً. كنت أقفز مباشرة إلى مناطق الشهوة القريبة. قريبة من خيالي أنا الرجل الذي لم يمارس رجولته قطّ.

لكن كيف أتجاهل هاتين الساقين الآن وهما مشهرتان أمامي على الأبيض الناعم، تربّعهما نُورا تحتها جالسةً على سريري ومندمجةً بكليّتها في دور الكوتشينة الذي أخوضه ضدّها غير آبه بالفوز أو الخسارة؟ كل ما يعنيني فقط معالجة انتصابي الذي بات مؤلماً من طول الأمل والخيبة. شهور وأنا أنتصب وأخبو ثم أخبو وأنتصب مراوغاً كل شيء لأسحبك إلى السرير يا نُورا. فما الذي يحول بيننا الآن سوى هذه الكوتشينة؟

أمدّ يدي إلى أوراق اللعب المتراكمة على الأرض وأبعثرها، وقبل أن تعترض بسبب النصر القريب الذي أهدرته من بين يديها، أجد نفسي وقد اعتليتها، هائجاً ومرتبكاً، قبضتاي متخشّبتان على ساعديها، تكاد رائحة هرموناتي تفوح، مثل البخور، مدوّيةً في الأفق. فيما ترقد هي وظهرها إلى الأرض، نظرة الذهول المرتخي تداعب شيئاً فيّ لا أعرف اسمه. أنحني حتى أصل إلى رأسها، وأنثر قبلات خفيفة متفرّقة على وجهها وعنقها. يبدر منها تشنّج سريع ثم يخمد. انتفاضة صغيرة كأنها قرار مقاومة تمّ إلغاؤه في اللحظات الأخيرة. تنتعش خلايا الشم في أنفي وهي تلتقط تلك الرائحة المخزّنة في ذاكرتي. لبشرة نُورا نكهة النعناع، أو شيء يشبه النعناع. نعناعٌ مُسكّر يغريني بألا أرفع فمي عنها بين قبلتين، مفضّلاً الزحف بشفتيّ بدلاً من التقافز.

أستوي فوقها، تنبسط تحتي. أُفلتُ ذراعيها وأواصل نثر قبلاتي. ألتقط شفتيها فتبادرني هي بالاشتباك، لساني يصطدم بلسانها قبل أن يتراجع مفسحاً لها المجال لتتجوّل في تجاويفي. يداها تطوّقانني من الخلف. أطمئن لذلك وأتمادى. يدي تنزلق إلى صدرها. ماذا تخبّئين هنا يا نُورا؟ أحاول تلمّس البقاع الطرية بيدي فيما أرفع شفتيّ عن فمها وأرميها بنظرة، فأجدها وقد أغمضت عينيها هائمةً في غيمة. أرفع نفسي بهدوء، تحلُّ حضنها عن جذعي. أنهض فتفتح عينيها المتسائلتين. أمسك يديها وأسحبها لتعتدل في جلستها، أطلب منها

خلع ملابسها، غير أني لا أسمع صوتي. الكلمات تنحشر في حلقي، عند تفاحة آدم، وترفض الخروج. أمد يدي إلى بلوزتها وأرفعها، تبادر هي بإكمال المهمة، لتزداد مساحات الأبيض. يا لعمرك الذي انقضى في الاستمناء والعَشَرات يا عيّاش! كنت أرمق إبطها الناعم وهي تخلع البلوزة، قبل أن أنتبه إلى نهديها الجميلين وهما ينفلتان بعيداً عن شدّة حمّالة صدرها السوداء.

ألتصق بها دون تفكير، لا أترك لها مجالاً لتفكّ اشتباك سلسلتها الفضّية مع خيوط بلوزتها. لا أهتم لهذا الأمر، لا أهتم إلا بالسخونة الخارجة مني. حممٌ أدفقها تحت جلدها بالتلامس، بينما شفتاي تجوبان تلالاً لم أطأها من قبل. هناك نهدان تحتي يا ناس. نهدان كبيران جميلان بحلمتين داكنتين وملمس طري وناعم. أصعد وأهبط. بشفتيّ أجري عليها مثل المجنون، ثم أتمهّل عند السرّة. أناور رعشتها بالعض. أواصل تنشّقها ونثر قبلاتي فوق كامل حيّزها. فيما تتصاعد أنفاسها، وأنا ماضٍ إلى حيث لا أعلم محتشداً بالهياج والشبق.

فجأة ارتعش، عندما أشعر بها تلمس قضيبي، الخام البتول. أجفل وأتراجع، تنظر لي مجدداً. أزفر وأقول لنفسي: حانت اللحظة. أنهض، ثم أنزع بنطلوني وسروالي التحتي، كاشفاً لها عن هذا الشيء الذي، لأكثر من ثلاثين عاماً، لم يمسّه سوى دكتور التوليد الذي استقبلني، والمختّن، وأمي عندما كانت تحمّمني في طفولتي.

نُورا لا تترك لي فرصة للتفكير في تجلّيات اللحظة الأولى، ولا الاعتذار عن الشعر الأسود الكثيف الذي يسود المنطقة. في أقل من ثانية تعتدل على ركبتيها وتلتقمه بين شفتيها. وأنا، وقبل أن أقول آهة واحدة، أمسك رأسها بكلتا يديّ لأبعدها عني وأقذف في نفس اللحظة. دفقة بيضاء اندفعت إلى عينها اليمنى لتصيح نُورا وهي بعين واحدة مفتوحة:

– انت لحقت؟

واقفاً أمامها، بقضيب منتصب يقطر لبناً، مرتدياً فانلة زرقاء تحمل في منتصفها صورة كرتونية لبطّة صفراء طافية على سطح الماء. لا أجد أيّ كلمة

لأقولها لها. فقط إحساس عارم بالخزي والعار والمهانة. أنظر صوبها ببلاهة وهي تحاول مسح القذفة المستقرة على النصف الأيمن من وجهها، متوزّعة بين عينها وخدّها...

قبل أن تتخلّص من اللزوجة التي التصقت بوجهها، أرفع سروالي سريعاً وآخذ علبة السجائر والقدّاحة إلى الحمام. أغلق الباب وأشعل السيجارة متأمّلاً نفسي في المرآة وفي بالي سؤال واحد لا غير: هل أنا فعلاً من يذرف تلك الدموع على خدّ الرجل الواقف في المرآة؟

—22—

بيزنس وومان

وصلت أمي بالأمس. طلبت مني ألا آتي لأقلّها من المطار، واتصلت بإحدى شركات التاكسي عبر الإنترنت وحجزت توصيلة. لم أنتبه لهذه التفصيلة ودلالتها إلا عندما رأيتها ببنطلونها وشنطة الظهر الخفيفة والإيشارب الأحمر. المرّة الأخيرة التي رأيتها فيها قبل ثلاثة عشر شهراً، كانت ترتدي ملابسها المعتادة. ثوب أسود تحت عباءة سوداء مطرّزة الصدر بحبّات خرز ملوّنة.

في اليوم الأول طلبت وجبات من مطعم قريب لأنها مهلوكة من الرحلة الطويلة. في اليوم الثاني وبعدما ارتاحت تماماً أصرّت أن تطهو أكلة لا أذكر اسمها، تعلّمتها من جارة مكسيكية، تقول إنها صديقتها المقرّبة. بعدها أخرجت أمي أكياس الهدايا؛ ثروة كاملة بعثت بها أختي إليّ، محافظ وعطور وملابس إكس إكس إل تناسب قياسي وثلاثة أزواج من الأحذية. في اليوم الثالث أردت أن أعزمها على مشويّات، إلا أنها رفضت، لأن وراءها مشواراً. ستقابل بعض الأشخاص من طرف زوج أختي، وغيرهم ممن ستحتاج إليهم في مشروعها. في البداية لم أهتم بكلمة مشروع تلك، وظننت أن ماما ستخيط بعض التريكو والمفارش كما كانت تفعل هنا لتؤنس نفسها.

عندما رجعت من مشوارها، وأثناء تناولنا العشاء، فتحت الحاجّة موضوع المشروع، قالت:

– مش أمّك خلاص هتبقى بيزنس وومن؟

انحشرت الكلمة في أذني وأنا أسمعها من الحاجّة خلال شرحها لمشروعها المرتقب. مطعم للأكل المصري والعربي في كاليفورنيا، طعمية وفول وكشري وحواوشي وملوخيّة بالأرانب وشاورما ومناقيش وكبيبة وفتّوش ومقلوبة وحريرة وطاجين وكبسة وبرياني وهريس وثريد... تقول الحاجّة: "انت ما تعرفش فيه عرب قد إيه في كاليفورنيا". تقول أيضاً: "والأميركان كمان... دا القرنبيط جنّنهم". وتؤكّد: "المطاعم أكتر مشروع يكسّب هناك".

آآه يامّة... ماذا فعلت بكِ الأيام؟

أستحضر منظر بنطلونها الجينز الواسع، والكروكس الرمادي ذي البطانة الفسفورية في قدميها، وقبل كل ذلك حجابها الأحمر. لا أعرف كيف أعلّق على المشروع الذي تستفيض ماما في شرح تفاصيله: موقعه، تكلفته المعقولة، أرباحه المضمونة، موزّدي الخامات ونسبة الضرائب، والمفاجأة التي أذهلتني، المتمثّلة في الإسم: "أم عُمر فور أورينتال فوود".

تقول ماما إنها تعتزم أن تتولّى الإشراف على المطبخ بنفسها، مستعينةً بمجموعة من الشابّات العربيات صديقات بطّة، من سوريا ولبنان والمغرب واليمن، ومرتكزةً على خبراتها في المطابخ الشامية والخليجية والمصرية. إذ رافقت أبي لسنوات أثناء عمله في الإمارات، وهناك تعلّمت الكثير عن المطبخ الخليجي، في مدينة العين، وبالتحديد في حارة السوريين بحي الجيمي، وأتاح لها نطاق الجيرة السوري ذاك فرصة كبيرة أيضاً لتتقن بعض الأطباق الشامية. عدا عن خبرتها الأساسية في المطبخ المصري. المطابخ الثلاثة اجتمعت منذ سنوات في كرشي، وها هي تعاود الاجتماع مرة أخرى في "أم عُمر فور أورينتال فوود" الذي صار هاجساً أساسياً لأمّي ستظل تكلّمني عنه طيلة فترة وجودها، وحتى ترجع إلى أميركا. تقول: "الأوراق هتكون بإسم بطّة". تقول أيضاً: "وإن شاء

الله عن طريق المطعم هاخد الإقامة". وتختتم: "إيه رأيك بقا؟".

رأيي؟

ليس لديّ أيّ رأي يا أمي، أنا متفاجئ فقط، متفاجئ قليلاً. لكن لا تقلقي ستزول توتّراتي سريعاً. أنا مرن، مرن جداً والحياة في هذا البلد علّمتني أن أواكب الأحداث وأتفاعل معها بليونة ونعومة وانسيابية. ثم أيّ أحمق هذا الذي سيتضايق عندما ترفع أمّه الستينية اسمه عالياً على الجانب الآخر من المحيط في بلاد العم سام عن طريق الكسكسي والكبسة والتبّولة؟ رأيي يا ماما إن عيارك فلت... تماماً.

أتجاهل الأفكار التي تطنّ في رأسي وأردّ:

– هايل طبعاً. إنتِ عظيمة يا حاجّة والله.

تبتسم أمي، وتنفحني مائة دولار. أقول لها إن معي فلوساً، فتقول: افتح حساب في البنك. أقول: فتحته قبل أيام. تقول: اعمل حساب دولاري. أبتسم وأذكّرها بمقولة جدّي الله يرحمه: "الدولار عملة أهل الجنة". فتلوي بوزها وتستغفر الله ثم تترحم عليه. تدخل إلى غرفتها، وتعود ومعها آي باد لم أتوقّع أبداً أن أراه بين يديها. تشغّله ثم تريني ست تصميمات مختلفة للوجو المطعم، كلّها تحت شعار واحد "سندلّل كرشك" (We will pamper you tummy). أقول لها ضاحكاً: "يا دين النبي". تقول: "حلوة؟". أقول: "أوي. واضح إنك عارفة إنك صانعة كروش من الطراز الأول".

وفي قرارة نفسي أتساءل: يا ترى هتجيلي السنة الجاية وانتِ عاملة إزاي يا حاجّة جينيفر؟

***

أثناء صعودي لقسم التنفيذ لأرسم صفحة النصوص، تقع عيناي على ورقة معلّقة عند الاستقبال، تحمل ذات التوقيع الفخم الذي أعرفه: "قرر مجلس التحرير إحالة المحرّرة هيام عبد السلام الشورى، إلى التحقيق الإداري، وخصم

نصف شهر من راتبها. كما قرّر المجلس تعيين الزميل حسين قناوي رئيساً لقسم الحوادث".

أبتسم في دخيلتي، باي باي هيام الشورى، كنتِ تتنافسين مع سامح على استرضاء رئيس التحرير التنفيذي، الآن بالكاد ستتنافسان على البقاء في المؤسّسة. أشعل سيجارة واقفاً في انتظار الأسانسير، أفكّر في ردّة فعل هيام إزاء هذه الجلدات التي أدمت ظهرها، كيف ستتصرّف وكيف سيتدخّل معارفها من ضبّاط الشرطة؟ يصل الأسانسير فأصعد مع الصاعدين، ولا واحد يجرؤ على التعليق على سيجارتي المشتعلة في هذا الحيّز الضيّق، حتى سالي عودة التي لطالما وبّختني على تدخيني في صالة التحرير تقف مبتلعةً لسانها. أبتسم مجدداً في دخيلتي، أحرص على نفث جرعة كبيرة من الدخان قبل وصولنا إلى الطابق الخامس. أتّجه إلى قسم التنفيذ وأبدأ مع الأستاذة هدى في تقسيم الصفحة واختيار صور تعبيرية. فجأة تتناهى إلى أسماعنا أصوات عالية، شجار ربما، بعض الزملاء يتّجهون إلى الخارج لاستطلاع الأمر. بعد أقل من دقيقة يقتحم الصالة عمرو راضي، رئيس قسم التنفيذ في حالة نرفزة شديدة وغضب. يشخط في مرؤوسيه فيفتحون له طريقاً إلى مكتبه. حتى أستاذة هدى، زوجة عمرو راضي ونائبته في رئاسة قسم التنفيذ، تستأذنني وتلحق به في المكتب. دقيقة ثم تعود وتطلب مني أن أترك الصفحة لتتولّى هي رسمها لاحقاً. في عجالة تستمع إلى ملاحظاتي وتوصياتي، تهزّ رأسها وهي تواصل الالتفات صوب مكتب رئيس قسم التنفيذ. فور انتهائي تهرول إلى هناك.

أسأل بعض المصممين ولا أحد يعرف. أتركهم وأنزل إلى مكتبي. أسأل عم محمود عن ماركو فيقول إنه في إجازة، أسأله عمّا حدث في الطابق الخامس لأجده لا يعرف هو الآخر. ينصرف، ويعود بعد دقائق ليؤكّد لي أن شجاراً نشب بين أحد أفراد الأمن وعمرو راضي، لأن فرد الأمن لم يستقبل ضيوفه بالشكل اللائق وأصرّ على رؤية بطاقات هويّاتهم. فما كان من رئيس قسم التنفيذ إلا أن تطاول على فرد الأمن ثم على اللواء الذي يشغّله. قبل أن يعرف هذا الأخير بالأمر

فيتّجه لراضي ليعاتبه. وإذا بالعتاب ينقلب إلى مشادّة وشتائم متبادلة. عم محمود يقول إنه عرف الحكاية من البيصي، فرّاش الطابق الخامس.

أطلب كوباية شاي بالليمون، يشير الساعي العجوز إلى كلتا عينيه وينصرف. أفتح الكومبيوتر لأفحص النصوص الجديدة التي وصلتني، شبكة الإنترنت ثقيلة، أفكر في أمي وفي نُورا. أشعل سيجارة مسترجعاً صدر نُورا العظيم، وارتجاجه مع كل التفاتة تندّ عنها. عم محمود يدق الباب ويدخل حاملاً صينية عليها كوباية الشاي وكأس ماء، يضعهما أمامي ويقول: "اللوا عايز حضرتك".

أتجه للأسانسير مجدّداً وأصعد إلى الطابق الرابع، وهناك يستقبلني اللواء بوجه متجهّم، وحاجبين منعقدين. يقول: اتفضّل يا أستاذ عيّاش.

– تحت أمر معاليك.

يستدير حول مكتبه ويجلس، فأجلس. يفتح درجاً ويستخرج منه ورقة، يناولني إياها، ويقول لي: إقرا. فأقرأ. عقد زواج عرفي بين عمرو راضي وسيدة تدعى فاطمة عاشور أبو طالب. تحمل توقيعين لشاهدين أعرفهما من الزملاء في قسم التنفيذ. أنتهي من قراءة الورقة ثم أنظر للواء كتلميذ مطيع ونجيب:

– أؤمرني حضرتك... إيه المطلوب؟

– شير في الخير.

– شير ع الفيس؟

– شير على أيّ حاجة، هفضح كس أمه، مش عايز صحفي فيكي يا مؤسسة ولا فرد أمن ولا موظف إلا ويقرا الورقة دي. وبالذات هدى مراته.

– عُلِم معاليك وجاري التنفيذ.

—23—

هجمة مرتدّة

يقول عم محمود إن عمرو راضي استقال، يسألني إن لم أكن قرأت الورقة الجديدة المعلّقة عند الاستقبال: "قرر مجلس التحرير تعيين الزميلة هدى سالم الفحّام رئيسةً لقسم التنفيذ". أقوم وأقرأ الورقة التي تحمل تاريخ اليوم. ضربة معلّم... موت وخراب ديار. واحد آخر في السلّة. باي باي عمرو راضي الذي جُنّ وتحدّى اللواء. أنت من جنيت على نفسك.

أقوم لأتمشّى في صالة التحرير. منذ أيام لم أذهب إلى هناك. أسلّم على هالة جميل التي تنتفض وترحب بي، تدردش معي قليلاً وتشيد بصفحة النصوص. في رأسي أشيد بساقيها الأحلى من كل النصوص، ثم أتركها وأذهب لأدردش مع محرري الرياضة عن مباراة الغد. على بعد ثلاثة صفوف، أقرأ الكلمة على شفاه سامح عطوة: "محفوظ عجب". أتظاهر بعدم الفهم وأواصل المشي إلى الصف الأخير، إلا أنني أسمعها هذه المرة جليّة مصحوبة بضحكة مكتومة بين سامح عطوة وجيهان. أكظم غيظي وأتجاهلهما لأصل إلى حيث يجلس محررو الرياضة. أناقشهم في خطط المدير الفني الجديد للأهلي، والمفاضلة بين 4–4–2 و4–3–3 و4–5–1. الزملاء يؤكّدون أن 3–5–2 و3–4–3 مستبعدتان

تماماً، وأن المدرسة الهولندية ستعتمد على مهاجم واحد وخط وسط محتشد بأكثر من خمسة لاعبين يقومون بكل شيء، يدافعون ويهاجمون ويستحوذون ويقتلون هجمات الخصم. أخوض مع نفسي في تلك التفاصيل أثناء عودتي إلى مكتبي، وأنا أفكّر في خطة هجومية أكتسح بها عطوة وأقصيه من البطولة.

محفوظ عجب سيريك العجب يا عطوة الكلب.

***

تقلب نُورا الموضوع إلى كوميديا لتكسر حاجز الخجل منذ اللحظة الأولى. تشير إلى عينها وخدها وتقول ممازحة: "كدا تعملها فيّا!". بحاسّتها الأنثوية تلتقط الارتباك في ملامحي وتداوره. لا أجد ما أقوله، أشعل سيجارة، وأعزم عليها بواحدة، ترفضها. يهلّ علينا النادل فتطلب الشيشة وعصير الفراولة وأطلب شاياً بالليمون. ما إن ينصرف أقول لها:

- هقول لك الصراحة.
- قول.
- دي كانت هتبقى أول مرة.
- أول مرة إيه؟

أغالب خجلي بابتسامة باهتة:

- أنا عذراء يا نُورا... بتول
- نعم؟!

قالتها عالية، أنظر لها ثم أتلفّت حولي لأجد بعض العيون الفضولية التي جذبتها الـ"نعم" المدوّية. ماذا أفعل يا ربّي؟ ألتفت لنُورا مجدداً، لا تزال النظرة الذاهلة في عينيها، لكنها سرعان ما تتلاشى لتحل محلّها ابتسامة، ثم ضحكة خافتة آخذة في التعالي. تقترب نُورا مني وتقول هامسةً:

- يعني أنا كنت هفتحك؟

تبتسم مواصلةً:

– طب دا أنا لازم أعمل كدا. دي تجربة العمر ياخي: فض بكارة السيّد الحَصور... هاها... تصدّق ينفع عنوان قصيدة.

غليان، يسري في عروقي، هل عليّ فعلاً أن أشعر بالخجل؟ لا أعرف. لكن لماذا أجدني لا أقوى على النظر في عينيها، أو حتى الردّ على سخريتها المتحمّسة؟ قبل أيام كنت أفكّر في أن أنيك نُورا، لكنّ لأن الدنيا دوّارة، في أيام معدودة انقلبت الآية وصارت هي من تفكّر في أن تنيكني.

تتابع صمتي بابتسامة مستفزّة، يأتي النادل بالمشروبات ثم ينصرف لجلب الشيشة، تبادر بمقاطعة الصمت:

– إنتي مكسوفة يا بيضا؟

أزمجر محذّراً:

– نُورا!

تقول وابتسامتها لا تفارق وجهها:

– طب خلاص خلاص يا عُمر والله. مش هتكلّم في الموضوع دا تاني. بس أنا بجد مكنتش أعرف.

تصل الشيشة، تتناول اللّي وتضع المبسم البلاستيكي، ينصرف النادل:

– ماما جت من أميركا وقاعدة كمان أسبوع. أنا عايزك فعلاً تعملي اللي قلتي عليه. بس لما تسافر.

تضحك نُورا مجدداً وتواصل سخريتها مني، تقول إن كلمة ماما مضافةً إلى حقيقة كوني غرّاً مفتقداً للخبرات تشعرها بأني مسخوط، وأني سأبدأ بخسارة سني عمري والمضي عكس الزمن حتى أصل للثالثة عشرة وأسخط إلى طفل.

شكراً نُورا... كلكِ ذوق.

***

من الأحداث المبهجة مؤخّراً، عودة الوزير السابق لتولّي حقيبة الثقافة مرة أخرى. رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير لا ينسى أصدقاءه، لذلك أصدر

تعليماته لرئيس التحرير التنفيذي بإفراد ملف كامل عن عودة الوزير الليبرالي المستنير إلى الوزارة. ورئيس التحرير التنفيذي عهد إليّ بتجهيز الملف وتحرير المقدّمة وتنسيق المواد، واضعاً كل محرري الثقافة في الجريدة والموقع تحت تصرّفي. وها أنا أجري معهم اجتماعاً وأوزّع عليهم الأدوار، ياسر أحمد سيستطلع آراء المثقفين في عودة الوزير، دعاء صلاح ستجري حواراً هاتفياً قصيراً معه، زياد محمدين سيقدّم بورتريه عنه، وأنا سأكتب عن الوزير بين ولايتين. أمهلهم حتى الثامنة لإنجاز التكليف. ثم استدعي سامح عطوة على انفراد إلى مكتبي وأكلّفه بكتابة ألف كلمة تحت عنوان: ملفّات شائكة على مائدة الوزير، وبصلفٍ أخبره بأن مهلته ساعة واحدة فقط. يحاول التذمّر غير أني أنهي النقاش وأصرفه من المكتب. يمضي وهو يبرطم.

أشعل سيجارة ثم أتّجه إلى صالة التحرير، ألقي التحية على زينة عتريس وإيمان فرغلي ومحمد منصور وهالة جميل. أحرص على أن أقف أمام سامح ليشعر بالتوتّر. أريد له أن يكتب موضوعه بلهوجة. تقطع سالي عودة أفكاري وهي تمدّ يدها الصغيرة الجميلة لتصافحني، أتلمّس أصابعها الناعمة ثم أستمع لاقتراحها بإجراء حوار مع شخص لا أهتم كثيراً بمعرفته، أعطيها نصف تركيزي بينما تجول عيناي لترصدا سامح. أقاطعها وأتركها وأذهب إليه. أسأله: "إيه الأخبار؟"، يقول: "مالحقتش أكتب لسّه"، أرد: "ماتشغلش بالك بالمقدمة والعنوان، وإنجز". يمتقع وجهه، أتركه وأعود لسالي عودة، ومنها إلى هالة جميل، ثم أعود للضغط على سامح. لمدّة ساعة أواصل اللعب بإيقاع ثابت، عشر دقائق مع الجميلات ثم دقيقة لعطوة الكلب. أعيد الدورة لخمس أو ست مرات، وفي الأخيرة يقول سامح: "خلاص الموضوع كدا". أقول: "تمام. اطبعه وهاتهولي، وابقا سيب لي مساحة فوق عشان أكتب مقدمة".

أذهب إلى مكتبي، ماركو يلملم أشياءه ليغادر. أسلّم عليه وأجلس. يدخل بعدي سامح عطوة، يسلّمني المقال مطبوعاً ثم ينصرف. ألقي نظرة سريعة عليه، لا شيء بعينه، مجرّد تناول محايد للملفّات المفتوحة والمشكلات الموروثة من

الوزراء السابقين. لا يشغلني الأمر. أضع الورقة في الطابعة ثم أفتح صفحة وورد، وفي رأسها، أكتب بخط كبير "في ولايته الثانية: 5 أخطاء لا ينبغي على الوزير أن يكرّرها". أطبع الجملة على رأس الورقة التي سلّمني إيّاها سامح، لتبدو كعنوان أصلي للموضوع. أصوّر منها عدة نسخ وأضعها في درج المكتب. بعدها أفتح صفحة وورد وأكتب:

طلب منّا السيد رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير تجهيز مادة صحفية عن وزير الثقافة الجديد. تعليمات مجلس التحرير كانت تحتّم علينا الاحتفاء بالوزير بصفته رجلاً تنويرياً وطليعياً. كمدير للتحرير تولّيت مسؤولية الإشراف على الملف، وقمت بتوزيع التكليفات على محرري الثقافة. إلا أنني فوجئت بالمحرر سامح عطوة يسلمني مقالاً يحمل هجوماً مبطّناً على السيد وزير الثقافة، متجاهلاً بذلك تعليمات مجلس التحرير وتعليماتي بالتبعيّة.

وبإجراء بحث بسيط عن المحرر سامح عطوة تمكّنت من رصد مقالات تحمل توقيعه موجودة على شبكة الإنترنت. قام بنشرها في مواقع يتم تمويلها من جهات مشبوهة ومعادية للبلد، بعضها يبث من تركيا وبعضها الآخر يبث من إيران وموقع ثالث لم أتمكّن من تحديد جنسيته أو جهة تمويله. وبالبحث عن الموقع الأول اتّضح أنه تابع لجماعة الإخوان المحظورة. وأن المحرر سامح عطوة درج على نشر مواد صحفية عبر تلك المواقع التي تحمل صيغة عدائية ضد البلاد.

يضاف لما سبق، أنني تمكّنت من رصد تفاعلات المحرر سامح عطوة، على موقع الفيس بوك، في كل التعليقات الساخرة من السيد رئيس الجمهورية، والجيش، والشرطة، والحكومة، والبرلمان، والأزهر الشريف، والكنيسة. ومرفق طيّه صور لعلامات "لايك" وزّعها المذكور على بعض الكتابات

والتعليقات ورسومات الكاريكاتير التي تحمل تهكّماً على الدولة بمختلف أركانها.

مرفق أيضاً نسخ من مقالاته المنشورة في المواقع المشار لها سابقاً. بالإضافة لروابط تلك المقالات. ومرفق نسخة من المقال الذي كتبه عن السيد وزير الثقافة تحت عنوان "5 أخطاء لا ينبغي على الوزير أن يكرّرها". وفي هذا المقال، ورغم أن المحرر حاول مداراة انتقاداته للوزير وإلصاق الأخطاء والمشاكل التي يتحدث عنها بالوزراء السابقين، إلا أنه يشير بوضوح إلى أن السيد الوزير نفسه كان أحد هؤلاء الوزراء السابقين. وبالتالي فإن جانباً كبيراً من تلك الأمور التي يسمّيها المحرر سامح عطوة "أخطاء"، تسبب فيها سيادة الوزير نفسه خلال ولايته السابقة.

ملحوظة: اتجهت إلى السيد رئيس التحرير التنفيذي لأبلغه بما بدر من المحرر سامح عطوة وكتابته لمقال يخالف السياسة التحريرية للجريدة، إلا أنه كان خارج مكتبه ولم أتمكّن من التواصل معه، وبمجرد عودته سأبلغه بالشق الفنّي من الأمر.

—24—

نهايات سريعة

مزاجي ليس على ما يُرام. أترك أمي منهمكةً في متابعة الترتيبات لمشروعها، مندمجةً مع الآي باد، وأدخل إلى غرفتي، أفكّر في شيء أتفرّج عليه لأرطّب مزاجي، أفاضل بين مسرحية لعادل إمام أو مجموعة من الحلقات الكوميدية القصيرة لعادل كرم وعبّاس شاهين. أنحاز للاختيار الثاني، وأتفرّج على مجدي ووجدي المثليين المتورطين أبداً في البحث عن أيّ شيء طويل ليؤنس ثقوبهما. صوت رسالة على الموبايل يقطع عليّ استغراقي في الضحك، أتفحّصها فأجد رسالة صوتية من نُورا تغنّي فيها بطريقة ساذجة: "ماما زمانها ماشية، ماشية بعد شوية، رايحة لأونكل سام". أشعر برغبة في الضحك من رسالتها العبيطة، إلا أنني لا أتمكّن من الابتسام حتى. على قزحيتي صورة موشومة لها بوجه يغطيه المنيّ، وأنا أقف أمامها مثل البطّة البلدي.

أرمي الموبايل على السرير، ثم أستخرج من محفظتي ورقة دوّنت فيها الوصفة التي أعطاني إيّاها تايسون زاعماً أني سأسجد له بعد التأكّد من فاعليتها: مقدار ملعقة صغيرة من الجنسنج الكوري الأحمر يتم تذويبه في كوباية زنجبيل، تركيبة موسّعة للشرايين، زائد نصف قرص مودابكس أو ربع قرص ترامادول.

عندما عرفت أن الوجبة العلاجية تتضمن الترامدول رفضت، إلا أن تايسون أكّد لي على تعدد أنواع الأدوية التي تساهم في إطالة المدّة. المودابكس كان ثاني اختيار يطرحه، دواء اكتئاب ثبت أنّ من آثاره الجانبية تأخير القذف.

الآن أنا جاهز بأسلحتي العلمية الجديدة: وصفة مجرّبة يتوازن الجانب العشبي منها مع الجانب الكيميائي، وقراءات متعددة في كيفية السيطرة على لحظة الذروة، عن طريق التحكّم في عضلة معيّنة تغلق المسار على دفقة السائل الأبيض المتطلّع للانعتاق، أو بالتحكّم العقلي وتشتيت الذهن لتأخير القذف، وأنا ولله الحمد لا أعرف هذه ولا تلك، إلا أنني عازم على التطبيق.

على الصفحة البيضاء المتمركزة في منتصف الشاشة أمامي، أكتب:

دبّوس فضّي صدئ، ينغرس في قفاي، يغوص في جذع مخّي، يصنع ثقباً رقيقاً في المخّيخ، فيتشنّج جسدي، تتخشب أكتافي وعنقي وركبتاي ومفاصلي، ويتراءى لي المخّيخ، بلون يميل للبني، كاكاو، وهو ينقبض، وتصدر عنه ومضات كهربية زرقاء، تُعطِّل العديد من وظائف الجسم، وتُرهق قلبي، فتقل دفقات الدم في شراييني، وترتخي أوصالي... وعندما أشعر بانسحاب تلك الرعشة القاتلة من حشفتي، تحديداً عندما يتراجع حيواني عن البصق، أسحب الدبّوس الافتراضي من جذع مخّي، وأواصل معاشرتها، فتتدفق الدماء سخية في عروقي، وتتعالى شهقاتنا نحن الاثنين، حتى إذا ما شعرت بالقذفة تتحرك من كيس الصفن، مارة بالبربخ، متّجهةً مرةً أخرى، ككتلة بلغم في الحلق، إلى الحشفة، انسحب، ألتقط أنفاسي، أُغيّر الوضع، ثم اشتبك مجدّداً، ولما تقتضي الحاجة، أغرس الدّبوس إياه في

جذع مخّي، كمحترف للتعذيب البطيء، أو كمعالج صيني، أو كأي حاجة، بوسعها أن تقبض أعصابي وشراييني، وتؤجّل القذف...

رسالة أخرى تقاطع دفقتي اللغوية المتخيّلة، تسجيل صوتي جديد: "انتا هنا؟". أردّ عليه برسالة مسجّلة: "أنا هنا، مسحول ف الشغل. الاتنين الجاي الحاجّة هتسافر، هتشغلني معاها اليومين الجايين ف كام مشوار. هكلّمك يوم التلات". أحرص في التسجيل ألا أقول لها إني سأنخرط في تدريبات ذهنية مركّزة، تقيني مؤونة القذف المبكّر، وتجنّبني تلويث وجهها باللبن قبل أن أتمكّن من تلويث عُشّها.

***

"قرر مجلس التحرير، فصل المحرّر سامح محمد عطوة من المؤسّسة، كما قرّر المجلس تكليف المستشار القانوني للمؤسسة لاختصام المذكور أمام الجهات القضائية المختصّة". داخل رأسي أرقع زغرودة مدوّية، وقع الكلب في الفخ الذي نصبته له وانفجر اللغم في وجهه. الوداع يا عطوة الكلب. تقف إلى جانبي زينة عتريس، تنقل عينيها بين الورقة وبيني، بعد برهة تكسر الصمت وتقول: "نو سامح إينيمور". أبتسم في وجهها وأرد: "سبحان من له الدوام"!

***

ترفض الحاجّة أن أوصّلها إلى أي مكان. تحجز عن طريق الإنترنت سيارة لتقلّها. تقف عند مدخل البيت لتودّعني، بينما يقوم السائق الأنيق المهندم بتسكين الحقيبة في شنطة السيارة.

الحاجّة ستتّجه إلى الإسكندرية، تقريباً لتقابل بعض الخبراء والتجّار، لا

أعرف على وجه الدقة ماذا تنتوي أن تفعل هناك، لكني أعرف أنها ستسافر غداً مساءً من مطار الإسكندرية، في رحلة مدّتها أربع ساعات إلى لندن، وتعقبها رحلة أطول بأربعة أضعاف إلى كاليفورنيا.

توصّيني ماما بالحفاظ على نظافة الشقّة، والاهتمام بصحّتي ومراقبة وزني الآخذ في التفاقم. والأهم من كل ذلك توصّيني بالبحث عن عروس، تقول إن شعري نحل وصلعتي بدأت تشفّ، لا تجد حرجاً وتجيبها لي بالبلدي: "قبل ما تخستع وتجيب ورا". أبتسم خجلاً، صورة مروان تومض في رأسي وتعقبها صورة لقذفتي ملتصقة بوجه نُورا. أداري حرجي بابتسامة. أضمّ ماما وأقبّل رأسها. بصوت مرتعش أطمئنها: "حاضر يا حاجّة. هشوف عروسة".

—25—

نُورا VIII

السيد الحصور يلحس الشيكولاتة

قرب الظهر، توقظني نداءات الباعة الجائلين. موزّع أنابيب الغاز يواصل إصدار الرنّات المدوّية بالمفتاح الإنجليزي الذي يقرع الجسد المعدني للأنبوبة. الطرقات تستوطن رأسي، أشعر بالصداع. أقوم وأجهّز كوباية شاي. أغلق الشبابيك وأشد الستائر، تخفت حدة أحزمة الضوء الداخلة إلى بؤبؤي، أشعل سيجارة، وأرشف من الشاي، فيعتدل مزاجي بالتدريج. ورثت هذه التناحة الصباحية عن بابا، كان يستيقظ من النوم عند السادسة، إلا أنه لا يصحو فعلياً إلا في السابعة. كان يقبع بعينين غائمتين لفترة طويلة على الكنبة، كالمضروب على رأسه، كأنما يساوم اليوم قبل الاندماج به والخروج للعمل.

أمّا أنا، فلن أخرج للعمل اليوم، رغم أنه ليس يوم إجازتي، لكن المزاج العام منذ الأمس يقول: يلعن أبو الشغل، دون أسباب واضحة. عند الخامسة ستأتي نُورا، ومن هنا حتى ذلك الوقت سأقوم بمجموعة تمرينات استعدادية، نصف قرص مودابكس، مع وصفة الزنجبيل والجنسنج الكوري الأحمر، يعقبها وجبة

فطور تتضمّن ثمرة فاكهة عالية السكّر وكوب زبادي. أطلب من محل الفكهاني القريب أن يرسل لي بعض الموز والتفّاح. وأجلب الزبادي من الثلاجة، أقطّع الموزة على الزبادي وأضع عليه ملعقة من عسل النحل، وألتهم الخلطة الفيتامينية على ثلاث جرعات كبيرة. أشغّل بعض الأغاني التي أحبّها. الآن أشعر بأنني أفضل.

***

نُورا تطلب مني أن نتعرّى سويّاً، تبدأ في فك أزرار قميصها، أتباطأ في حلّ حزامي، فتترك أزرارها وتبادر إلى فك حزامي، تنقرني بقبلة سريعة نصفها على شفتي ونصفها إلى جانب فمي. أحاول أن أتفاعل معها غير أنني أشعر بنفسي وكأنني مقيّد، هناك شيء ما يسلب إرادتي. عقلي يقول لي: لن تتعلّم العوم ما لم تقفز في الماء. إلا أن جسدي لا يطاوعني.

أنزل بنطلوني على الأرض، وألحقه بالغيار الداخلي، يتهدّل جهازي اللحمي متغضّناً ومنكمشاً في نفسه. تنهي نُورا حل حمّالة الصدر. وتشرع في نزع بنطلونها وهي تطالبني بخلع فانلتي والتعرّي كاملاً. أزدرد ريقي، وأتجاهل قلقي من ردّة فعلها على كرشي المتدلّي وصدري المترهّل، بشكل آلي أخضع لتعليماتها كتلميذ يتلقّى أسرار المهنة من مُعلّم مخضرم.

تنظر نُورا إلى جسمي ولا تنطق. تجلس على ركبتيها وتلتقم حيواني الكمشان في نفسه، تشرع في تقبيله ومداعبة خصيتيّ، تمرر يدها على عانتي منزوعة الشعر ثم تشير بإبهامها راضيةً على نظافتها. تفعل ذلك وأنا أتابعها من فوق، وأشعر بأن ما يحدث هناك في الأسفل أمرٌ لا يخصّني، وكأنّما أتابع فيلماً بورنوغرافياً تم تصويره على طريقة Point of view، حتى عندما تبدأ عروقي في الانتفاخ والتمدّد، أحس بأنّ هنالك شيئاً ناقصاً، أين تلك النغزة التي كنت أحس بها تشعل نحري مصحوبة بقشعريرة وسخونة في الأذنين؟ لا أعرف، وربما نُورا أيضاً لا تعرف. هل هذا هو تأثير وصفة تايسون؟

تواصل نُورا دغدغتي بلسانها وأسنانها، يدها لا تزال تُدلّك ثمرة الجوافة المتدلّية بين فخذيّ، انتصابي يبدأ في الاستواء. أتذكّر التمرينات الذهنية التي من شأنها أن تؤخّر القذف، عليّ أن أجد فكرة ما لأسرح فيها بعيداً عن قضيبي الذي اشتد وبدأت أشعر فيه ببعض السخونة. خاطرٌ ينبثق في رأسي وأنا أنظر إلى عقارب الساعة: هل سيخوض يوسف المساكني مواجهة الأهلي والترجّي التونسي غداً؟ هو لاعب خطير، وله ملامح حادّة وشعر بنّي أكرت شديد التموّج والخشونة، ملامح مزعجة لأي منافس. كما يتمتّع بجسد طيّع ومرن للغاية. أنا أكره يوسف المساكني، وأتمنّى لو يقوم حسام عاشور بالتدخّل معه بخشونة وقسوة، بل بشراسة وغباء، ويتسبّب له بقطع في الرباط الصليبي، أو على الأقل الإصابة بوَتَر أكيليس. هذا لن يكون مفيداً للأهلي فقط، بل سيصب أيضاً في مصلـ...

تقطع نُورا أفكاري عندما تفلت عضوي من بين شفتيها، فينهدل إلى الأسفل مرتخياً نصف منتفخ. ترفع رأسها وتنظر في عيني مباشرةً لتقول:

– انت فيه إيه موَتّرك؟

أنا متوتّر؟ أبداً. أنا تائه فقط، ضائع ولا أعرف ماذا أفعل. قبل قليل كنت في ملعب للكرة، الآن أنا هنا وأنتِ تحت ولا أشعر بأي ترابط بيننا. لا أشعر إلا بالخزي والارتباك. هل استخدمت تقنية التحكّم في توقيت غير مناسب؟

تبتسم نُورا بأمومة. تترك موقعها على الأرض وتقف، تمسك بيدي وتسحبني إلى الكنبة، تشغّل التلفزيون وتطلب مني أن أتناسى كل ما يزعجني ويقلقني، أقبع جوارها صامتاً مُحبطاً، تفتح شنطتها وتخرج عدّة قطع من الشيكولاتة، أتابعها وهي تفك أغلفتها، تعطيني واحدة فآخذها ولا آكلها. تمسك باقي القطع، وتسخّنها بالولاعة واحدة تلو الأخرى، كل قطعة تنصهر تدعكها في نهديها، وأنا أتابعها بدهشة طفل في السيرك. بعد دقيقة، تنتهي من عملها. أصبح لديها الآن نهدان من الشيكولاتة. أتأمّلهما، تبدو سعيدة وهي تراني ذاهلاً. تتناول إحدى فردتي صدرها وتقترب منّي وهي تسأل بدلال: تاكل؟

آكل. ألحس. أشمّ. أتلطّخ بالشيكولاتة. تتلطّخ الشقّة بشهقات خافتة.

أعض. أمص. أشهق. نُورا تمدّ يدها وتتحسس انتصابي، تداعب خصيتي، أشعر بالسخونة تبدأ عند ركبتيّ وتمر بعانتي، مواصلة حتى رقبتي. حتى حلقي. حتى شحمتيّ أذنيّ اللتين توهّجتا. تنتزع نُورا وجهي من فوق صدرها وتزرع لسانها في فمي. مجدداً أستعيد عبقها الآسر، الذي أودّ لو يعبئونه في زجاجة ويعطونني إياها. لعابنا يختلط، ونُورا تحتضنني. صدري يلتصق بصدرها. الشيكولاتة تدبقنا في بعض. يدها تواصل تدليك خصيتي وقضيبي.

بهدوء تتخلّص من حضني وتنبطح على ظهرها، تفتح ساقيها وتقول: "تعال". فأتغاضى عن حساباتي حول ثقل كرشي فوق بطنها المستوية، وأنكفئ عليها، أشعر بانتصابي ينغرز في فجوة رطبة رحبة، ما هذا. هل أنا داخلك الآن؟ هل هذا المكان الواسع هو عشّكِ يا نُورا؟ هل هو واسع فعلاً أم أنني أنا من يعاني من ضمور في رجولته بفعل سنوات من التهميش والإقصاء والبطالة الهرمونية؟ لا يهمّ.

تتأوّه نُورا بصوت منخفض وتقول: "كفّارة". فأبتسم رغماً عني، وأخرج. أدخل. أخرج. أدخل. أخرج. ركبتاي وظهري وحوضي وذراعي تعمل وفق تناغم لم أجرّبه من قبل، إلا أنه يحدث بتلقائية وسلاسة. أدخل. وأخرج. أدخل. وأخرج. القشعريرة تداهم نصفي السفلي كاملاً، والعسل ينسال في حلقي. أدخل وأخرج. نُورا طريّة وشهيّة وطيّعة. أدخل وأخرج. أدخل مرةً أخرى ثم أخرج وأنا لا أزال صامداً. تتأوّه. أدخل. أخرج. تشهق. أدخل. أشهق. أخرج. تشد حضنها عليّ. أدخل، أفكّر في استدعاء يوسف المساكني. أخرج. تستحثّني على الاستمرار. أدخل. أستدعي المساكني وعاشور دفعةً واحدة. أخرج. تشهق وترتعش. أدخل. تيار كهربائي يسري في جسدي ويدغدغ عمودي الفقري. أخرج. تنتفض وتعض على شفتيها. أدخل. تبلّل نفسها وتبلّلني. أخرج. أدخل مرّة أخيرة، ثم أنسحب فوراً. بالكاد تسعفني ذراعاي لأنهض من فوقها، وأريق قطراتي البيضاء على عانتها وبطنها وأنا أطلق آهة حيوانية خشنة ومتقطّعة كدبّ يحتضر. أنتفض برجفتي الأخيرة. ثم أستسلم وأستوي فوقها، لاهثاً، ومنعجناً في سوائلنا اللزجة.

—26—

سعداء وجوعى

فور دخولي، تسلّمني السكرتارية مظروفاً مغلقاً يحمل شعار وزارة الثقافة. آخذه وأدخل إلى مكتبي، أسلّم على ماركو ثم أشعل سيجارة وأفض المظروف لأجد دعوة من الوزير لحضور اجتماع سيعقده غداً في مكتبه بالزمالك مع شباب المثقّفين المرشّحين للالتحاق باللجان المختلفة في الوزارة. أصوّر الدعوة سعيداً، وأرفع الصورة على الفيس بوك موجّهاً كلمات الشكر للجنة الاستشارية صاحبة الترشيحات ولشخص الوزير الكريم. في ثوان تتوالى التعليقات:

زينة عتريس: مبروك يا أستاذ عمر.

باسم نانو: تستاهل كل خير صديقي.

محمد منصور: أيوه بقا.

إيمان فرغلي: ألف مبروك يا أستاذ عيّاش.

سامح عطوة: محفوظ عجب يواصل التسلّق.

محمد عوض: من نجاح إلى نجاح.

سالي عودة: ألف مبروك يا جميل.

زياد محمدين: مبروك يا ريّس. لينا عندك عشوة.

أكرم سيد عبد الحميد: من أين أستطيع أن أشتري كتبك؟
هالة جميل: خبر هايل. إلى الأمام يا عيّاش.
نُورا جابر: موبايلك مقفول ليه؟
لطيفة آيت لقمان: تهانينا يا صديقي النبيل. هذا عهدنا بك. موفّق يا رب.
مؤيّد ممدوح: شرف وأيّ شرف. مبروك.
أشعل سيجارة أخرى. منتشياً أترك المكتب وأقوم لأتمشّى في صالة التحرير، زينة ومنصور وسالي وهالة يوجّهون التهاني ويسألون عن طبيعة لجان وزارة الثقافة، واحتمالات انضمامي إلى أيٍّ من تلك اللجان، أشرح لهم ما أعرفه عن لجان القصّة والشعر والرواية والمسرح والفنون التشكيلية والتراث وغيرها من الفروع. أواصل الدردشة معهم لدقائق، ثم أتركهم وأمشي إلى قسم الرياضة، أحب مجادلتهم في الكرة، مستوى المنافسة في البطولة المحلّية وفنّيات اللعبة، أحياناً أحاول أن أعرف منهم كواليس إدارة فريقي المفضّل، والصفقات المزمعة لسد مراكز الضعف في الفريق. خلال نقاشنا تدخل السكرتيرة إلى صالة التحرير وتنادي عليّ، تقول إن مدير التحرير التنفيذي يستدعيني إلى مكتبه. أترك محرري الرياضة وأتّجه إلى هناك، أطرق الباب وأدخل، يستقبلني الرجل بابتسامة وترحاب، يبارك لي ترشيحي من قبل الوزير للانضمام لإحدى اللجان، يرجّح وجودي في لجنة الرواية أو القصّة حصراً. ثم يختتم حديثه بسؤال:

– محررة الديسك دي اللي كنت بتقول عليها اسمها إيه؟

– نُورا يا فندم. نُورا جابر.

– أيوه نُورا. هي شغالة فين دلوقتي؟

– هي كانت في موقع "العالم" يا فندم وبعدين سابته ودلوقتي في مكتب أبحاث من اللي حوالين الجامعة دول.

– آه. طيب خلّيها تيجي بكرة وتقابل أستاذ داود اللي ماسك الديسك الصباحي ونشوف هيقيّمها ازاي.

– تمام يا فندم. شكراً جداً.

أستأذن، أرجع لمكتبي فأجده خالياً. أتصل بنُورا لأبشّرها بقرب تعيينها. تستقبل الخبر بسعادة وامتنان، تقول إننا يجب أن نحتفل بهذه المناسبة، وتقرر أن تعزمني. فأطلب أن تكون العزومة عندي في الحفرة، وأشترط أن تعزمني على شيكولاتة. شيكولاتة فقط.

أعهد برسم الصفحة إلى أحد محرّري الثقافة، وأغادر باكراً. يحق لمدير التحرير أن يفعل ما يحلو له، وعلى المتضرر اللجوء للإدارة، أو للواء، أو لأيٍّ كان، وعلى الأرجح لن يكسب شيئاً سوى عداوتي.

في الطريق إلى البيت تتناوب عليّ الأفكار: ترى كيف سيكون الاجتماع غداً مع الوزير وهل سأصل لإحدى تلك اللجان؟ كم تبلغ قيمة بدل حضور الاجتماع في اللجنة؟ أم تراه تطوّعيّاً؟ ألمح يافطة انتخابية منسيّة تحمل صورة رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير، فأفكّر في التطوّرات الأخيرة ومحاولات بعض الكتل الحزبية إسقاط عضوية نائبنا من المجلس. صراعات برلمانية غرضها تصفية الحسابات. لا أهتم. في الراديو يصدح صوت سميرة سعيدة وهي تؤكّد: "مش هتنازل عنّك أبداً مهما يكون". أطلب من الأسطا أن يرفع الصوت وأنا أؤكد لنفسي أني بالفعل لا أنوي التنازل عن وجود نُورا في حياتي أبداً مهما يكون.

***

عند السادسة تتّصل وتعتذر عن المجيء. البنت الصغيرة كالمعتاد حجّة لا تُصدّ ولا تُردّ. أبتلع خططي لأمسية طائشة، وأتمنّى الشفاء للصغيرة. في المقابل تعدني نُورا بأن تزورني في الغد، بعد أن تنهي اختبارها في الجريدة مع أستاذ داود.

تتراجع شهيتي المفتوحة، أشعر بخيبة أمل. أفكّر أنه يجدر بي الآن أن أستهدف الوصول لأخريات. زينة عتريس مثلاً، بتملّقها المفضوح وكحلها الكثيف والقرط الذي وضعته في أنفها مؤخّراً بعدما خلعت حجابها وتمرّدت على أهلها الصعايدة في نجعهم البعيد. أو هالة جميل، بطلة العالم في جمال السيقان. أو ربما يجدر بي أن أستهدف واحدة من شاعرات الدلتا والصعيد،

من أولئك اللواتي يرسلن قصائدهن التي تنضح بالتعاسة، ولا يخرجن من بيوت أهلهن إلا للذهاب إلى الجامعة. ترى كيف سيكون الوضع معهن؟ أفكر: في تلك الحالة سأكون أنا من يمتلك تجربة سريرية أمام فتيات يافعات متورّدات معدومات الخبرة. ما أحوجك إلى لوليتا صغيرة يا عيّاش!

***

لم يكمل اجتماعنا مع الوزير بضع دقائق. ربع ساعة على الأكثر. تم اعتماد اسمي في لجنة الشباب التابعة لمجلس الثقافة والفنون، كنت أتمنى أن يحالفني الحظ في الالتحاق بلجنة الرواية أو القصّة، لا سيّما وأنا أمتلك في رصيدي رواية ومجموعة قصصية، صحيح أنهما صادرتان قبل سنوات طويلة. لكني في النهاية أنتمي لهذا الحقل.

غير أنني سرعان ما تنازلت عن أمنياتي تلك، عندما عرفت أن العمل مع كل اللجان مجّاني. الوزير قال إننا يجب أن نتعامل مع حضورنا في اللجان بوصفه تكليفاً نفخر به من الدولة لأبنائها الموهوبين والخُلصاء. والأبناء الخُلصاء، بعد انتهاء الاجتماع، يتسابقون في الطواف حول البوفيه البسيط في كافيتيريا الوزارة. سعداء وجوعى لخدمة الوطن. يثبتون موهبةً كبيرة في ملء أطباقهم بأنواع مختلفة وغير متناسقة من الأكل. أتابعهم وأنا أشعر بنفور كبير من مجرد التفكير في مزاحمتهم حول البوفيه. لذلك، أشعل سيجارة ثم أتمشّى خارجاً من مبنى الوزارة، أستوقف تاكسي، وأطلب منه أن يقلّني إلى الجريدة في الدقّي.

—27—

نُورا IX

لسعة الشمعة

منذ الصباح تتملّكني رغبة في رؤية ابنة نُورا، سأطلب منها ذلك اليوم عندما تصل. أقول لنفسي. لا أعرف لماذا تهفّ البنت على بالي، ربما هو الفضول إلى رؤية صغير تلك المخلوقة الأم. ترى هل تتشابهان؟ لا أعرف. أقوم وأبدأ في تجهيز الخلطة السحرية، أجهّز الزبادي بالموز والعسل. أسخّن الماء لإعداد الزنجبيل، ثم أضيف إليها ملعقة من الجنسنج الكوري الأحمر. أشرب مخلوط الزنجبيل المغلي، ثم آكل الزبادي، وأعقب ذلك بابتلاع نصف حبّة مودابكس. أشغّل الموسيقى بينما أفكّر أنني وأخيراً بدأت أراكم طقوساً وشعائر مصاحبة لعمليات الوصال السريري.

أتّصل بنُورا لأعرف كيف تسير معها الأمور في اختبارها تحت إشراف الأستاذ داود. تكنسلني. ألفُّ سيجارةً وأدخّنها على ثلاث دفعات. تنشعر رأسي بالمزاج، أحس بنفسي خفيفاً بفعل الدخّان والموسيقى. أفتح صفحة وورد وأكتب:

بعد قليل ستأتي الحلوة – ليست حلوة كثيراً – بعد قليل سأركبها، بعد قليل ستدهن نفسها بالشيكولاتة وتدعوني لألتهمها، فيصاب قلبي بغيبوبة سُكر.

هل تلخّصت الحياة فيكِ يا نُورا؟

ن و ر ا...

ماذا ستفعلين بي اليوم؟.

أقوم إلى الحمام وأفرغ مثانتي. أرجع إلى غرفتي. أشعل سيجارة. أتصل بها ثانيةً، ترد وتقول في عبارات مقتضبة إنها تبلي جيداً منذ الأمس، وإن أستاذ داود أشاد بشغلها. تؤكّد على موعدنا عند الخامسة ثم تغلق الخط. أفتح بريدي الإلكتروني وأفرز النصوص المرشحة للنشر في الصفحة. أتأمّل الكتابات الأنثوية التي تحرص على الاشتباك باللغة والإيغال في المجازات. أقول لنفسي هؤلاء من رواد مدرسة نزار قبّاني وأحلام مستغانمي. ثم أقرأ مجموعة نصوص أخرى لكتّاب اللغة صفر. وصف محايد ميّت. أصنّفهم بـ"الكلاسيكيين الستينيين". أمّا الحداثيون المتطورون الذين يحبّون خلق عوالم كابوسية أو كرتونية وإقحام اللهجة العامية بغزارة، فهم الذهنيّون من جيل ما بعد الحداثة، هم أبناء جيلي، الذين يكفرون بكل شيء إلا الحشيش والسفر والضحك والموسيقى. مجموعة من التَّفَهَة اللُّذاذ. أنهي فرز النصوص. أقوم من أمام اللابتوب وأقصد المكتبة. تكتظ مكتبتي بعشرات الروايات التي لطالما حرصت على شرائها من معرض القاهرة الدولي للكتاب، كل سنة، وبدءاً من شهر نوفمبر أشرع في ادّخار ميزانية خاصة للمعرض الذي يُقام عادةً في نهاية يناير. وأبدأ لم أنهِ قراءة كل ما أقتنيه من كتب. أفتح ضلفتي المكتبة وأبدأ في تمرير سبّابتي على كعوب الكتب، ألتقط العناوين وأسماء المؤلّفين والمترجمين والناشرين. تستوقفني رواية **عشيقات النذل** لكمال الرياحي، يروقني العنوان، منذ فترة يرقد هذا الكتاب على رفوف مكتبتي دون أن أمسّه، أفتح الرواية عشوائياً وأقرأ السطور التي تقع عيني عليها: "... أعلم أنكم ستتركوني أموت ككلب إن سقطت مريضاً. أعلم أنكم أولاد قحبة.

رأيتكم تتخلون عن بعضكم. ستقولون: "يهودي كلب"، وسيخرج منكم من سيفتي بتركي أموت. تأتون الآن لأترافع عنكم لأنّكم جرّبتم أهل ملّتكم ووجدتموهم متحيّلين. غداً لن يبقى لي شيء يجعلكم تهرعون إليّ". تطربني الكلمات، فأرجع للصفحة الأولى، وأشرع في القراءة، متوحّداً بشخصيات الرواية، مندمجاً في لغة الشارع التي لم يجد الكاتب حرجاً في استخدامها. عند الصفحة الحادية والعشرين ترن نُورا على الجرس. فأعلّم الصفحة وأغلق الكتاب، وأنهض لأستقبلها.

***

أقول لنُورا إنني أريد ان أرى ريم، فترحّب. لا تسأل عن دوافعي ولا تهتم إلا بانتقاء موعد مناسب. تقول إنها لم تنسّق مواعيد إجازاتها مع الأستاذ داود، كل ما تعرفه أنها ستباشر العمل معنا في مؤسسة "المواطن" الإعلامية بدءاً من الأحد المقبل. تؤكّد أنها ستعمل على تنسيق إجازتها بحيث تواكب إجازتي، فأطلب منها أن تترك هذا الأمر لي.

لا يصمد فضولها طويلاً، تسألني أثناء جلوسنا في الصالة:

– بس إنتا إيه اللي خلاك عايز تشوف ريم؟

أبتسم. أعتقد أنني أخمّن ماذا يدور في رأسها الآن. أنفث دخان سيجارتي وأردّ:

– أبداً. من كام يوم جت على بالي وقلت إزاي ماشفتهاش ولا مرّة طول الفترة دي.

تقول نُورا إن يوم الجمعة سيكون مناسباً لذلك، تقول أيضاً إنها قريباً جداً لن تحتاج للمعونات المالية من والدها ومن حميها وحماتها، وإن ذلك سيضمن لها قدراً من الاستقلال يؤهلها لتنشئة الفتاة كما تشتهي لها. ستكون مرتاحة أكثر. وربما يسعفها ذلك في العودة لكتابة الشعر الذي انقطعت عنه منذ شهور طويلة. ترسم نُورا أحلاماً مبنية على وظيفتها الجديدة وراتبها الموعود الذي لم

تتقاضَ نصفه حتى من قبل. تضع نفسها في حضني وتقبّل رقبتي، أمسّد شعرها، أحب أن أفعل ذلك. تمنحني قبلة على خدّي، ثم على أذني. تدخل لسانها في تجويف أذني فأقشعر، وأنتصب بسرعة. يداي تقصدان صدرها. تطبق نُورا عليّ، تعتليني، تجلس القرفصاء فوقي وبيدها توجّه شمعتي في ثقبها، في رحمها، في قناة فالوبها، تطلع وتنزل، الاحتكاك يحرق خلاياي العصبية. تطلع وتنزل ويداي تواصلان مداعبة هالتيها وقرص حلمتيها، تطلع وتنزل وتشهق وأوحْوِح. ننصهر معاً في معزوفة مرتجلة تنتهي بي بعد فاصل من اللهاث وأنا أطلق ثلاث قذفات في الهواء، مثل الألعاب النارية. بعدها تتناول نُورا مفرشاً قريباً وتمسح السوائل اللزجة المتناثرة على عانتي.

***

الوجع لا يمزح.

أشعر بالومضات تصدر متعاقبة من مطرح الجرح، رنّات تدوّي أسفل ظهري. لا أشك للحظة أن الشمعة هي السبب. وزن نُورا مُضافاً إلى وزني شكّلا حمولة على ظهري وجرحي حديث الشفاء. لا أعرف ماذا أفعل؟ هل سأرجع للنوم منكفئاً على بطني؟

أجرّب الأمر، أحاول الاعتدال على ظهري، فيواصل الألم نغزاته ولكزاته في موضع الجرح، أقوم وأفتّش عن كيس الأدوية الذي نسيته منذ فترة. أجده في أحد أدراج المطبخ، آخذ قرصين من مسكّن قوي، ثم أندس في الفراش منكفئاً على وجهي، وأحاول أن أستدعي النوم.

—28—

أخبار مُرّة

على العكس من بطّة، لا تراعي ماما فارق التوقيت بين كاليفورنيا والقاهرة، تتّصل في أوقات غريبة لتطلب مني أموراً أغرب كأن أسقي زرعاتها في البلكونة، أو أن أؤلّف لها جملاً مسجوعة لتعيّد بها على جدّتي لأبي في عيد الأم. وها هو اسمها يومض على شاشة موبايلي الساعة الرابعة بعد منتصف الليل. ورغم أنني لست نائماً، إلا أنني أتعمّد أن أرد عليها بصوت متناوم.

بعد السلامات والاطمئنان على زرعاتها، تبشّرني الحاجّة بسير العمل في "أم عمر فور أورينتال فود"، ثم تسألني عن الزواج، وما إذا عثرت على عروس مناسبة. دون سابق تخطيط أجيبها:

– آه يا ماما. بس أرملة.

– أرملة؟

– آه أرملة.

بعد فترة صمت تعلّق:

– أرملة أرملة. المهم تكون بنت ناس.

– بنت ناس جداً.

- وبتشتغل إيه دي؟
- صحفية معانا في الجورنال.
- وإسمها إيه؟
- نُورا. فاكرة يا ماما لما كنت عامل الناسور وقلتيلي إنك هاتيجي وأنا قلتلك لا خلاص ماتجيش فيه واحد صاحبي بيغيّر لي ع الجرح؟ أهي نُورا بقا هي صاحبي دا.

تضحك أمي وتعلّق:

- إيه دا إنتا عامل لي البيت كرخانة؟
- لا والله يا ماما دي كانت بتغير لي ع الجرح بس، وبعدين دي أم.
- كمان أم؟
- آه. ريم بنتها عندها تَلَت سنين.

تضحك أمي مرة أخرى وتحيلني مباشرة إلى مسرحية العيال كبرت:

- وإنتا بقا هتبقا "أونكل كمال خطيب ماما جه"!
- دا بعد إذنك يعني.

تهدر الحاجّة كل تخميناتي برفضٍ هكذا فكرة ومقاومتها، وتفاجئني بموافقة ناعمة وهادئة، تقول إن أهل مكة أدرى بشعابها وإنني أعلم بنفسي، لا تطلب إلا أن يكون للعروس أهل قابلون للهات وخذ لنستطيع التفاهم معهم. أندهش من ردّة فعلها. هل تورّطني الحاجّة في أي عروس والسلام؟ ثم هل أنا جاد فعلاً في ذلك؟

بعد يومين تصلني إجابات أسئلتي، نعم الحاجّة تورّطني في أي عروس والسلام، لأنها كما قالت أختي بصوت مختنق بالدموع، قررت أن تتزوج! تصعقني بطّة. أيّ طامّة؟ كارثة. تنحشر الكلمات في حلقي. من سماعة الهاتف تأتيني أنفاس بطّة محفوفة بالصمت. أسألها: "بتقولي هتتجوّز؟". تردّ: "أيوه يا عمر". تحكي أختي تفاصيل الموضوع: طبيب أميركي من أصول فلسطينية، له ملامح ريتشارد جير، يصغرها بعامين، هي في التاسعة والخمسين وهو في

السابعة والخمسين والمطعم طبعاً كان مطرح اللقاء، والحلال مفيش أحلى منه، وأنا فضيحتي ستكون بجلاجل.

أغلق الخط وغصّة مريرة تخنقني، تحتشد الدموع في عيني وأنا أفكر في أمي التي فقدت صوابها تماماً على كَبَر. أتذكّر أبي، الرجل الطيّب الذي أحرق عمره عليها وعلينا، أتذكّر احتضاره البطيء. أمسح دموعي وأقوم لأفتّش عن ألبومات الصور. أجدها في الضلفة السفلية من النيش. كان أبي شاباً وسيماً، ومثلي عاش طفولته خارج مصر، في السودان، قال إنهم كانوا ينادونه "أحمد رمزي" بسبب عينيه الضيّقتين مثل الممثل المصري المعروف. أقلّب صفحات الألبوم: صورة له بالغترة الإماراتية والدشداشة البيضاء، صورة يتوسط فيها زملاءه في العمل، وثالثة مع أمي يمسك كل منهما بإحدى يديّ، وأنا أبتسم للكاميرا ببله، وتسيل ريالتي على صدري.

آخذ نسخة من الصورة الأسرية السعيدة، أرفعها على الفيس بوك وأكتب فوقها:

"لا تصدّقوا ابتساماتي في الصور".

***

ألتقط الحالة المكهربة بمجرد دخولي إلى صالة التحرير، الوجوه متجهّمة والأجواء مشحونة. قرب حمّام السيّدات ألمح جيهان وهي تبكي في حضن سالي عودة. الفضول يغزوني غير أنني أتماسك وأتجاهلهما. أنظر صوب محرّري الرياضة فأجدهم منهمكين أمام أجهزتهم ينقرون على لوحات المفاتيح في معزوفة جماعية، كأنما يتسابقون في كتابة مواضيعهم. أترك الصالة عائداً إلى مكتبي. ماركو غير موجود كالعادة، أشعل سيجارة ثم أطلب شاياً من عم محمود الساعي. أشغّل الكومبيوتر وأشرع في التجوّل على الشبكة. أبدأ بالفيس بوك، وقبل أن أكمل دقيقة واحدة أرى الفجيعة بعيني: زينة عتريس تضع صورة لمحمد كرم وترفقها بشارة سوداء. وعلى رأس صفحتها رابط يحمل عنوان

"مقتل 19 من مشجعي الزمالك بسبب الاختناق والتدافع". صورة محمد كرم ميتاً تجاور العنوان، أنقل الفأرة إلى العنوان، أضغط عليه فتنفتح صفحة بموقع إخباري، أقرأ: "خاص – سيد عبّاس: مأساة جديدة شهدتها منظومة الكرة المصرية أمس، عندما لاقى 19 من جمهور نادي الزمالك حتفهم أثناء تدافعهم لدخول المباراة... واستقبلت مشرحة زينهم 19 جثماناً للتالية أسماؤهم: محمد رفيع عزّام – محمد كرم أبو المكارم...". أقطع القراءة عند الإسم الثاني في قائمة الموتى، وأقوم مهرولاً إلى القسم الرياضي، أسأل الزملاء عن الواقعة فيحكون روايات متضاربة. أنس عبّود يقول إنها شجارات بين مجموعات مختلفة من الأولتراس، ومحمود حسن يؤكّد أن سوء التنظيم كان السبب في ذلك. لا أستوعب، أقف إلى جوار أنس وهو يتنقّل بين التقارير والفيديوهات التي ترصد الحادثة. صورة جثة محمد كرم مدهوسة وشائهة تتسيّد المشهد. صوت شحتفة جيهان وسالي عودة يتناهى من مقربة. أمرّ بجوارهما فترمقني جيهان بنظرة مؤذية، مشحونة بآلاف الشتائم والاتهامات.

أنزل من المؤسسة وأقف أمام المبنى، أحاول أن أعبّ أكبر قدر من الهواء في رئتيّ المنقبضتين. أستعيد طيف محمد كرم وهو يبادر إلى التعرف إليّ في يومي الأول بالمؤسسة، ومساندته لي في معركتي مع سامح عطوة. أتذكّر هوسه بالزمالك، وحلمه بالحصول على منحة أريج، والاشتغال بالصحافة الاستقصائية، وسجائره الرديئة التي طالما حرص على أن يعزمني عليها. لا معنى لهذه الدموع المحتشدة في عينيّ يا كرم. لا معنى لأيّ شيء في هذه الحياة يا أخي.

الله يرحمك يا محمد يا كرم.

—29—

الفيوم، الطفلة، ماركو

الطريق من الجيزة إلى الفيوم ليس طويلاً، أقل من مائة كيلو متر. لكنني، محشوراً في سيارة ميكروباص تضم أربعة عشر زميلاً وزميلة، أشعر بالطريق الآن وقد استطال حتى لامس مشارف بني غازي. المسافة هي هي دون ريب، لكن الزمن هو النسبي المخاتِل، فالوقت يمضي بي وسط هوْلاء، دبِقاً وثقيلاً. الصهد الذي يشع في الأثير قادماً من صوب جيهان، الجالسة في الصف الثاني، يصلني في مؤخّرة السيّارة محمّلاً بالكثير من البغض. كراهية تجعّد الزمن وتجعله متهدّلاً ولزجاً، فيما، إلى يميني، يجلس حبيبها، محمد منصور، منكمشاً في نفسه ككلب أجرب، ومصدراً هو الآخر، عبر تلامس كتفينا هذه المرة، الكثير من الذبذبات السلبية.

تفصلنا نصف ساعة عن مركز إطسا، الذي سنتجه منه إلى قرية الغرق، حيث عزاء محمد كرم، وأنا، طوال الطريق، أحاول عزل نفسي عن الأحاديث المترددة في السيارة، عن طريق سماعتين صغيرتين أدسهما في أذني، سارحاً بعيني في الكثبان الرملية المحيطة بالطريق يميناً ويساراً، ثم الأشجار التي تبدأ في الظهور متناثرة حول المدخل الشمالي للفيوم، متخيلاً محمد كرم طفلاً ضئيلاً يتقافز

بجلبابه الريفي الأزرق بين الغيطان، أو راكضاً قرب الظهير الصحراوي الذي يصل قريته بمضارب البدو والعربان، يلعب مع أترابه ويحادثهم بتلك اللهجة الفيومية التي تفتح أواخر الكلمات وتستخدم مفردات خاصة جداً... بجلبابه الأزرق أراه يقف بجوار صديقه، يقترب من أذنه ويهمس بينما يشير إلى الأعلى: "الجنزورة ع الشوحة"، فيلتفت صديقه أيضاً إلى الأعلى، ثم يشرعان في جمع الحجارة والحصوات من الأرض ليواصلا لعبهما... تندّ عني ضحكة مكتومة وأنا أتخيّل منظره مع صاحبه وهما يحاولان اصطياد العصفور الواقف على عامود الإنارة، بينما تتردد داخل رأسي المفردات الفيومية التي لا أعرف من أين انسربت إلى قاموسي.

أرى أضواء سرادق العزاء من مسافة، فأخلع السماعتين. كما توقّعت، منطقة شديدة الفقر، حيث يفصل البيت والسرادق بين غيط وخرابة، والاثنان يقعان في قرية غير معبّدة الطرقات. يصلني صوت مؤيد ممدوح وهو يطلب من السائق أن ينضم إلينا في العزاء لينال الثواب ويشرب بعض القهوة التي ستعينه على التيقّظ في طريق العودة، إلا أنه يرفض مفضلاً البقاء في الخارج للتدخين وغسل السيارة. تطقطق المفاصل كلها بعد النزول من السيارة، وأتجه وسط الحشد إلى مدخل السرادق حيث ننقسم إلى مجموعتين للرجال والسيدات، أشعر بالارتياح لابتعادي عن جيهان، التي باتت مزعجة كخرّاج نبت تحت ضرسي.

الحاج كرم أبو المكارم، البالغ الطول مثل ابنه المرحوم، يقف في مدخل السرادق وقد حمّرت الدموع عينيه، بينما لا تزال ملامحه تحتفظ في ثناياها بآثار الإجهاد المصاحب للدفن الذي عرفت أنه حدث قبل يوم. أتأمّل الحاج فأجده أفندياً على عكس توقعاتي، يرتدي بذلة سوداء مناسبة لأبعاده الكبيرة، بل ومرسومة عليها. بين الحين والآخر يغادر موقعه في مدخل السرادق ويتمشّى مستنداً على صبي ليدور بين صفوف المعزّين، موزعاً ترحابه الريفيّ على شكل جملتين مصحوبتين بإشارات بيديه صوب صدره وصوب المعزّين: "أحسن الله عزاكم"، "شكر الله سعيكم". أتأمّله، فيدهمني سؤال عن هوية الصبي المرافق

للحاج، وأجد نفسي فجأة أدقق في الوجوه المحيطة عساني ألتقط وجهاً شبيهاً بوجه الحاج وابنه الراحل، أتساءل عن أسرة محمد كرم وعدد إخوته، ثم أذوّب الأسئلة وأرتشفها مع فنجان القهوة الذي يوضع أمامي، مرّاً، مبهماً، وأسود... بالضبط مثل الحياة.

***

ضمن ثلاثة أطفال يقفون بانبهار قرب المرأة العجوز التي تطعم قطط الشارع، تقف ريم الصغيرة، مدهوشة، بالكائنات الصغيرة الناعمة، التي لا ترى مثلها في البيت. تحاول أن تقلّد صوتها، تمدّ يدها بوجل لتتحسسها، تحجم، تنظر لأمها الجالسة إلى جانبي في مقهى سوق الحميدية، ترسل لها نُورا ابتسامة وهزّة رأس مشجّعة، تلتفت الصغيرة إلى القطة الرمادية مجدداً، وتمدّ يدها لتتحسّسها، تبتسم وتدبدب برجليها في الأرض، إلا أنها سرعان ما تعود إلى وضعها الطبيعي: التجهّم. ريم طفلة متجهمة، وقد لفت ذلك نظري منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها، كيف تستطيع طفلة لم تكمل عامها الثالث أن تقطّب حاجبيها وتزم شفتيها؟

بين الحين والآخر تلتفت العجوز إلى الأطفال وتطلب منهم برفق أن يذهبوا لذويهم ويتركوا القطط لتأكل في سلام. العجوز قالت لريم وهي تشير صوبي "روحي لبابا"، وعندما يئسَت، طلبَت من نُورا أن تسحب الصغيرة بعيداً عنها وعن القطط، وها هي ريم، بكل الشبه بينها وبين نُورا، وبملامحها المتجهّمة، تجلس في حِجر أمها، وتحضّر لعاصفة من البكاء، حاشدةً الكثير من الدموع في عينيها. تفتح فمها على آخره ويحمرّ وجهها، ثم تطلق صراخها المدوّي، الذي لم تنفع معه الهدهدة ولا الأحضان ولا القبلات ولا الحلوى التي اشتريتها لها من الكشك القريب. لم نعرف، نُورا وأنا، ما الذي يمكن أن نقتنيه للصغيرة فتخمد زوبعة البكاء. لذلك، أوافق على طلبها بالمغادرة بعد أن أحرجتها نظرات رواد المقهى. أنهض وأدفع الحساب، أخرج وتتبعني نُورا، وعندما نصل إلى

منتصف شارع هدى شعراوي، تغفو ريم في حضن أمها، التي تقف بين الحين والآخر لتوازن حمولتها الموزعة بين الطفلة وشنطة يد كبيرة، أعرض عليها أن أحمل عنها الصغيرة فلا تتردد في التخلّص منها. أحملها برفق، ثم أواصل السير صوب ميدان عبد المنعم رياض. صوت الخطوات يحتلّ أذني بالتضافر مع أبواق السيارات، ورِيالة ريم تسيل على كتفي ورقبتي، وأمامي مباشرة يهتزّ ردفا أمها، وهي تناور المارّة وتتفادى الاحتكاك بهم. فأحكم حضني على الصغيرة الناعسة وأهمس:

"جوّزيني أمّك وهجيبلك مية قطة".

***

صفحة ماركو عادل الشخصية على الفيس بوك لا تقول أيّ شيء، ولا توحي بأي ميول مميزة، فعدا عن الكثير من الصور مع قساوسة ورهبان، لا شيء مميزاً في صفحته.

أشعل سيجارة، وأطلب شاياً بالليمون من عم محمود، وأسرح في الهدف الجديد الذي حدّده لي اللواء، محاولاً اكتشاف الثغرة التي ستسمح لي بالتسلل خلف دفاعات ذلك المبهم الصامت الذي يشاركني الغرفة، ولا يشاركني أيّ شيء آخر.

—30—

نُورا X

عن الجروح المفتوحة

أنا بالطبع لم أقصد أن أضرب نُورا. كل ما حدث أن الألم صرخ فجأة في قعري، وزنها أثناء حركتها الزنبركية الصاعدة الهابطة ضغط على جرحي، فاضطررت إلى دفعها من فوقي وإخماد نار شمعتنا. لأن ناراً واحدة تكفي، إمّا في المقدّمة أو في المؤخّرة...

نُورا فهمت ما الذي حدث فور أن رأتني أتألّم وأمسك بإليتيّ ثم أنكفئ على جانبي متفادياً تحميل وزني على ظهري. لذلك ربما لا تبدي ردة فعل غاضبة من تصرّفي العنيف. تمسك بيدي وتشدّني لأقف. أطاوعها متألّماً، تستدير حولي وتطلب مني أن أنحني، فأنحني، بيديها تباعد بين إليتيّ وتعاين الجرح. تمد إصبعاً وتلمس الندبة الغائرة، فأرتعش. بهدوء تستدير لتريني إصبعها الذي تلوّثت عقلته الأولى بدم خفيف وردي اللون. فأجزع. تقول: "ما تقلقش". فيما ينخر القلق دواخلي. أنام على بطني محاولاً تنقية أفكاري من الألم، لأجد حلاً لهذه المحنة.

تشعل سيجارة وتعطيني إياها، أتناولها وأسحب نفَساً وأنا على وضعي، أسعل فينتفض جرحي نافثاً المزيد من الألم. أمدّ يدي لها بالسيجارة فتأخذها وتطفئها. أطلب منها أن تحضر كيس الأدوية، وكوباية ماء، آخذ ثلاثة أقراص مسكّنة دفعة واحدة. من الروشتة أستخرج رقم العيادة وأتصل، أناول نُورا الموبايل لتتفق مع الدكتور على تحديد موعد سريع للكشف عليّ. تقول إن الكشف المستعجل بسعر مضاعف فأرد عليها بآهة كبيرة. ترجع للمكالمة وتؤكّد الحجز.

تمرّ الدقائق بطيئة وأنا على وضعي. الألم ينزُّ في خطوطي الخلفية، مرتكزاً في دائرة مركزها الجرح المفتوح. وقبل أن يحين موعدنا أنهض متحاملاً على نفسي، متكئاً على نُورا. أغيّر ثيابي بمساعدتها ثم أنزل درجات السلالم بهدوء يليق بمعاق أو حامل. ومن ثم أستوقف تاكسياً يتعجّب سائقه من السيدة التي تجلس في الكرسي الأمامي بينما ينبطح رجلها على بطنه في الكنبة الخلفية.

تطلب نُورا منه أن يتمهّل عند المطبّات والحفر لأن الارتجاج يسبب لي الألم، يتجرّأ الأُسطا ويسأل عن نوع المرض الذي أعاني منه، أرد قبل نُورا: "خشونة في العمود الفقري". فيتمنّى لي ألف سلامة. وينطلق عبر طريق مختصر، هارباً من زحام الشوارع الرئيسية.

مجدداً أتعكّز على نُورا، نزولاً من التاكسي ووصولاً إلى سرير الكشف. حيث يقوم الدكتور بتطهير الجرح ثم يدسّ فتيلاً دقيقاً في الجزء المفتوح منه. يقول لي إن الأمر بسيط، مجرد خدش في مكان الجراحة، يؤكّد أني سأبدّل فتيلاً لمدة يومين أو ثلاثة على الأكثر، ويحذّرني من طول مدة جلوسي على المكتب أو في السيارة. ناهيك طبعاً عن ممارسة الجنس بأي وضعية تجعل ظهري مقابلاً للأرض. يعطيني روشتة تضم تنويعة من المضادات والمسكّنات، ثم يطلب مني أن أراجعه بعد أسبوع.

تسندني نُورا أثناء مغادرة العيادة. في الشارع تستأذنني في العودة إلى بيتها. تستوقف تاكسي لي وتطمئن عليّ وأنا جالس في الكنبة الخلفية على جانبي. تقول إنها ستمر عليّ غداً لتغيير الفتيل. ثم تمشي. وينطلق التاكسي. أقطع أغلب

الطريق سار حاً في حالي. متجاهلاً نظرات السائق في المرآة. بينما حقيقة واحدة تدوّم في رأسي: لا شمعة بعد اليوم.

***

يمرّ الوقت ثقيلاً ودبقاً في البيت، كأنما أسكن في منطقة تمتلك نسبية خاصة بالزمن فيها، تجعل الساعات صمغية ولزجة.

هل كان الوضع هكذا قبل نُورا؟

أفكر، ولا أجد إجابة واضحة، أو ربما أعرف الإجابة لكني أحاول أن أناورها. لم تكن أيّامي زمان ناعمة ورائقة. أستعيد شريف العجماوي وأيّام تنظيف المرحاض وإعداد الشاي للضيوف. أتذكّر أيام البطالة، والصحافة الحرّة، ثم العمل الصحفي المؤسسي. أشغّل التلفزيون وأقلّب بين المحطّات. عند أول برنامج للطبخ أتذكّر ماما وفعلتها المشينة التي ستنجزها خلال أيام. من الموبايل أفتح بريدي الإلكتروني وأطالع رسالتها للمرة الثالثة أو الرابعة:

"ابني الحبيب عمر. السلام عليكم. سأدخل إلى الموضوع مباشرة. أكيد أختك قالت لك إني ناوية أتزوّج من دكتور منير. أنا أعلم أن هذا الأمر يسبب لك الألم. سامحني يا عمر. ولازم تعرف كمان إن عدم زواجي من هذا الرجل سيسبب لي أنا الألم.

لا داعي للكلام عن الشرع والحلال فأنت تعرف هذه الأمور. أنا أعدك أن أكون دائماً سنداً لك. وأعدك بأن سعادتي لن تكون أبداً على حسابك. وأتمنى أن تتفهّم كلامي. الدكتور منير اتصل بخالك إبراهيم وتقدّم بشكلٍ رسمي، وسنعقد قراننا بعد ثلاثين يوماً من الآن. سأحصل على الجنسية. وستحصل بطّة قريباً على الجنسية. وساعتها سنستطيع أن نحضرك إلى هنا بسهولة لو كنت تحب العيش في أميركا.

ابني الحبيب. يقول الله تعالى في كتابه الكريم ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ من سورة البقرة، ويقول أيضاً جلّ وعلا: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ من سورة النور. صدق الله العظيم.

وأخيراً يا عمر، أذكرك باتفاقنا بأن تبحث عن عروسة وتتزوج، لا داعي أن أذكرك أن عمرك الآن 32 سنة. الوقت لا يتفاهم يا عمر. فعجّل بالأمر.

وآخر حاجة... سنزورك في مصر قريباً أنا ودكتور منير. أنا أثق أنك ستحبه، لأنه مثلك يكتب الشعر.

خلّي بالك من نفسك

أمك المحبّة.

تومض أمامي كلمتان: "انكحوا" و"لا تواعدوهنّ سراً"... النبض والحرارة يستوطنان أذني. لمن أفضفض؟ لمن أشكو خيبة آخر العمر؟ أقوم وألفّ سيجارة قوية وكثيفة بالحشيش. أدخنّها بجرعات كبيرة. بينما الألم يخفق في موضع الجرح. جرح مؤخرتي، وجرح ماما وحبيبها الذي اسمه منير.

—31—

الشيخ الفنّان

حفنة سهاد ذُرّت في عيني. أتمدّد في سريري منذ ساعات، مستعيناً بالمسكّنات على آلام الناسور، لكنّ النوم يتمنّع، فأقضي الوقت محملقاً في بياض السقف، متقافزاً بين الأفكار: ماما ستتزوج، فهل أطلب أنا أيضاً نُورا للزواج؟ هل سأتحمّل طفلتها المتجهّمة أبداً؟ وماذا عن الشغل؟ ماذا عن ماركو الذي لم أعرف عنه أيّ شيء؟ الله يرحمك يا محمد يا كرم، كنت ستساعدني بالكثير من المعلومات في هذه الحالة. الله يرحمك يا صاحبي، عشتَ فقيراً ومتَّ مغدوراً. كيف يعيش أبوك بمعاشه الزهيد؟

تتناهبني الأفكار طويلاً، فأترك نفسي لها، مثل رجلٍ طافٍ على ظهره فوق سطح البحر، مستمتعاً بالشمس، مستسلماً للتيار يجرفه حيثما اتفق. أبقى هكذا، إلى أن يقطع أفكاري صوت المؤذن يدعو لصلاة الفجر، فأقوم من رقدتي، ألفّ سيجارة، وأدخّنها رفقة كوباية شاي بالليمون، ومن ثم أقف تحت الدُش لدقائق، معطياً الماء الدافئ فرصة ليتغلغل في نسيجي. أخرج بعدها من الحمّام وأرتدي ملابسي، آخذ كيس الأدوية معي، ثم أتجه إلى موقف الرماية لأستقلّ أول سيارة متجهة إلى الفيوم.

طوال الطريق يحتلّ الحاج كرم أبو المكارم رأسي، ترافقني صورته في بذلته السوداء بطوله الفارع ومفاصله المتآكلة مستنداً على الصبي الصغير. أستحضر ما قاله الزملاء عن وضعه الصحي المتدهور، ووضعه المادّي كذلك. أفكّر في أن روح هذا الرجل كانت أقوى من جسده ولذلك أستطاع أن يعيش بهذه الجثة الكبيرة المتهالكة، أمّا الآن، وبعد أن تلقّت روحه عياراً نارياً بموت محمد مدهوساً تحت الأقدام، فأشكّ أنه سيصمد طويلاً.

أنزل من السيارة التي وصلت لتوّها إلى الفيوم. اليوم في بدايته والصغار في طريقهم إلى مدارسهم، والباعة يطلقون الصيحات الأولى على بضائعهم. أسأل أحدهم عن مكان السيارات المتجهة إلى إطسا فيدلّني، أركب السيارة، وفي دقائق قليلة نصل إلى قرية الغرق. فأترجّل، وأحاول أن أتذكّر دروب القرية وصولاً إلى بيت الحاج كرم أبو المكارم.

***

قبل ثلاث سنوات طلع الحاج كرم أبو المكارم على المعاش، بعد أن بلغ الستين، وترك وظيفته التي اشتغل بها لأكثر من ثلاثين عاماً، محصّلاً لفواتير الكهرباء. مكتفياً بالمعاش البسيط الذي خصصته له وزارة الكهرباء والطاقة. مدعوماً كذلك ببعض أعمال الخط العربي وتزيين الجدران بالرسومات المهنئة بالمولود الجديد أو عودة الحجّاج إلى البلد، وفوق كل ذلك، مستنداً على ابنه الشاب محمد، الذي شقّ طريقه في القاهرة، واشتغل في أكثر من صحيفة.

– "لكن يا أستاذ عمر الدنيا بنت وسخة".

يقولها الحاج وهو يقلّب السكر في كوباية الشاي التي جهّزها لي بعد أن استقبلني بشيء من الدهشة. أؤمّن على كلامه، أعدّل وضعية جلوسي لأتفادى الارتكاز على موضع الألم أسفل ظهري، وأجد نفسي أواسيه بأن أحكي له عن الأيام بنت الوسخة التي أمرّ بها، وأمي التي قررت أن تتزوج على آخر العمر. يبتسم الحاج وأنا أقرأ له من الموبايل، الرسالة الأخيرة التي تلقيتها منها، وتتسع

ابتسامته وهو يسمع عرضها لي بالعيش في أميركا، وفي النهاية، يتهرّب بلباقة من إبداء رأيه، مكتفياً بجملة مقتضبة عن الحلال والشرع.

– بس دي عندها ستين سنة يا أستاذ كرم.

– بردو حقها، وربنا يدّيك الصحة وطولة العمر ومايكتبش عليك الوحدة على كَبَر.

– وحدة إيه يا حاج مهي عايشة مع بنتها وجوزها وولادهم. ثم اللـ..

يقاطعني الحاج واضعاً يده على صدره:

– الوحدة بتكون هنا يا عمر، مش في مكان تاني.

أسكت. وأرتشف الشاي. يتأمّل الحاج وقع كلماته على ملامحي، يتراجع في كرسيه ويستند على ظهره، يقول بطريقة حاول أن يمنحها سمتاً مسرحياً:

ما أكثر الناس، لا بل ما أقلَّهُمُ الله يعلم أني لم أقلْ فَنَدا
وإني لأفتح عيني حين أفتحها على كثيرٍ ولكن لا أرى أحَدا

– الله عليك يا حاج.

– الله على دُعبل الخزاعي.

– دا الشاعر؟

– آه. شاعر م الفطاحل.

ثم مضيفاً:

– هستأذنك ثواني. خد راحتك.

أتأمل الحاج بينما تصدر مفاصله الكثير من الطقطقات وهو يفرد قامته الفارعة، وأتساءل في قرارة نفسي عن كيفية معرفة هذا الموظّف البسيط بدعبل هذا الذي يبدو جاهليّاً أو أمويّا على أحسن تقدير. يغيب الحاج في أحد أركان البيت الضيّق، فأنشغل بتصفّح بريدي الإلكتروني وصفحاتي الشخصية، رغم بطء الشبكة وسوء التغطية. ثم أجري مكالمة سريعة مع نُورا لأطمئن عليها، تسألني عن مكاني فأخبرها أنني في البيت وأنني سأذهب للشغل مساءً.

بعد فترة، يدخل الحاج حاملاً لوحة صغيرة كتب فيها بخط الثُلث: "وإنِّي لأفْتَحُ عَيْني حِينَ أفْتَحُها علَى كَثيرٍ ولَكِنْ لا أرَى أحَدَا". قال: "خد علّق دي عندك في البيت". أشار صوب الجدار وأضاف: "وأنا كمان هعلّق واحدة هنا". واختتم: "إيه رأيك؟".

أتأمّل اللوحة وانسيابية انحناءات الثُلث، في نفس الوقت الذي أحاول فيه تقييم هذا الشيخ الظريف، الذي أشعر بألفة ما ناحيته. أقول له: "تحفة، تسلم إيدك". أقول أيضاً: "والخط الثُلث أجمل خط عربي". ثم أوكّد: "وانتا فنان والله يا حاج كرم".

نرجع إلى مقعدينا، فيشرع الحاج في الحكي عن حياته مع الوحدة، وعن محمد الذي لم يزره في الحلم رغم انقضاء أسبوعين على رحيله. يعرّج على الجيران الطيبين الذين يحرصون على إرسال أبنائهم وبناتهم إليه من حين لآخر، يسألونه عن احتياجاته ويعرضون معاونته في مهام الطبخ والتنظيف وشراء الأغراض المختلفة وقضاء المشاوير. عند هذه النقطة أمد يدي إلى جيب قميصي، وأسحب الظرف الأبيض. أسلّمه للحاج، الذي يرتسم التساؤل على ملامحه، فأشرح له أن هذا مبلغ بسيط قمت بتجميعه مع الزملاء، وأنه لا يجب أن يرفضه، لأن محمد نفسه كان يساهم في هذه المبادرات التضامنية عند تعرض أحد الزملاء لمرض أو ابتلاء ما.

لا يبدي الحاج كرم الكثير من التمنّع، يتناول مني الظرف، الذي دسست فيه ثلاثة آلاف جنيه من جيبي. يضعه أمامه على الطاولة، أراقب ملامحه المستكينة، وألاحظ لمعة في عينيه، فأسارع في الاستئذان بالمغادرة، قبل أن ينفجر في البكاء.

***

تقول نُورا إن طيزي أصبحت نقطة ضعفي. تنفث دخان سيجارتها وتبتسم لتغيظني. أتلفّت فلا أجد أحداً من الزملاء يقف بالقرب منّا عند الأسانسير

حيث ملجأ المدخّنين. أرد: "شخصية لسانها زفِر". ثم أستطرد لكيلا أترك لها ثغرة تواصل خلالها مزاحها السمج، فأحكي عن سفري في الصباح للفيوم، وزيارتي للحاج كرم الفنّان... أستفيض في الحديث عنه، وأريها صورة للوحة التي أهداني إيّاها، فتقول إن هيئته لم توحِ أبداً بهذا الثراء والعمق. أسحب نفساً من سيجارتي متجاهلاً ملاحظتها، وأذهَب إلى هدفي مباشرة:

– هتيجي معايا ولا هتروّحي؟

– لا نبقا نتقابل بكرة بقا، أنا هروّح.

(3)

انفجارات

فقاعةٌ ستنفثئ في أية لحظة

—32—

نُورا XI

حزينة وغامضة

لا أعرف شيئاً عن ماركو، ليس لديّ معلومة واضحة يمكنني أن أصوغها في جملة من مبتدأ وخبر، هذه هي الحقيقة التي أتوصّل لها بعد أكثر من عشرة أيام منذ تواصلي الأخير مع اللواء. الروابط المتاحة بخصوصه على شبكة الإنترنت لا تعدو كونها بعض الصور التي يحرص على التقاطها مع الأساقفة والقساوسة في مناسبات دينية قبطية مختلفة، أو تغطيات تقريرية محايدة لتلك القدّاسات. ليس هناك الكثير من النميمة والقيل والقال لدى زينة عتريس أو إيمان فرغلي. نانو أيضاً لم يعد موجوداً، فبعد شهور من السرية والدأب للحصول على الفيزا، حمل أسرته قبل أسبوع وهاجر إلى النمسا.

أترك مكتبي وأتّجه إلى صالة التحرير. أمرّ على قسم الديسك وأسلّم على نُورا والزملاء، ومن ثم أتّجه إلى محرّري القسم الرياضي. زينة عتريس تجلس شاردةً أمام جهازها، يلتمع القرط في أنفها، أتجاوزها، عابراً سالي عودة وهالة جميل وزياد محمدين، في طريقي إلى محرري الرياضة. على يساري يجلس

أيضاً مؤيد ممدوح والكريهة جيهان أبو زيد ثم محمد منصور ودعـ..
محمد منصور!

يبرق اسمه في رأسي كومضة فلاش، بينما أراه جالساً إلى جهازه، داسّاً سماعتين سوداوين في أذنيه. أتنبّه إلى أن هذا الفسل واحد من الأصدقاء المقرّبين لماركو. وأخيراً هاهو طرف الخيط.

بعد فاصل ثرثرة قصير مع أنس عبّود حول الصراع على صدارة الدوري، أرجع إلى مكتبي، أشعل سيجارة، وأطلب من عم محمود كوبّاية شاي، أطلب منه أيضاً أن يستدعي محمد منصور إلى مكتبي، لأدردش معه قليلاً، إذ ربّما، يقودني هذا الفسل، لمعرفة أيّ شيء عن الفسل الآخر.

***

تقول نُورا إن مزاجها معتكِر، بسبب الدورة الشهرية، وعندما تلاحظ خيبة الأمل التي عششت في وجهي، تقول إنها لا تمانع في أن تمصّ. تنبسط ملامحي وتسري نبضة في عروقي، أطفئ السيجارة الملغومة، وأترك الكنبة لأقف أمامها، متمترساً قبالة وجهها بالضبط، أنزل بنطلوني وأصوّب فوّهتي إلى شفتيها، تمدّ يدها وتداعب خصيتيّ، تفركهما برفق فينكمش كيس الصفن معلناً عن استنفاره. تتمدد عروقي وتبدأ السخونة في اجتياح نصفي السفلي وشحمتي أذني. تلتقمه. تعمل أسنانها وشفتيها في رأسه، تدس طرف لسانها في فتحته فتسري النار في عمودي الفقري ويرتعش قلبي من الداخل، من بطينيه وأذينيه، من سويدائه... بيمناها تمسك بيسراي، وبيسراها تداعب كرتَيّ المحتشدتين بالسوائل، وبشفتيها وفمها الرطب تواصل نُورا إشعال الحرائق في أعصابي وخلاياي. حرائق تنتهي بإعلان الاستسلام خلال دقائق قليلة، أقذف لها برايات بيضاء عدّة. مجموعة من القذفات التي تنتهي في فمها، مصحوبة بزمجرتي ولهاثي وأنا أرتعش، شاعراً بالخواء في ركبتَي.

تسارع إلى الحمام لتفرغ فمها من لزوجتي. أرفع بنطلوني وأشعل سيجارة

ثم أغطس في الكنبة الطرية، ممتلئاً بالرضا والاسترخاء، متفادياً موضع الألم بين ظهري ومؤخّرتي. أتناول الموبايل وأتصفّح بريدي الإلكتروني وبعض المواقع الإخبارية. لا شيء يسترعي انتباهي، أترك الموبايل وأقوم لأعدّ كوبايتَي شاي، تخرج نُورا من الحمام وتعلن أنها ستنصرف. أسألها:

– ليه بس هو انتي لحقتي تقعدي؟

بعصبية تردّ:

– آه لحقت.

ألتفت ناحيتها، أترك البرّاد الكهربائي يغلي بالماء، أقترب منها، ألمح التماعة عينيها، ينقبض قلبي، أسألها مجدداً:

– مالك؟

– قلتلك مش مبسوطة، مودي مش كويس النهار دا.

ألحّ عليها لتبقى، فتتشبث هي بالانصراف، أطلب منها أن تشرب الشاي على الأقل، إلا أن صوتها يرتعش مجدداً وتصرّ على أنها ستغادر. أقول لها: "طيب مالك بس يا نُورا؟". تقول: "مفيش". أقول: "طيب أوصّلك". تقول بنرفزة: "لا". يقول واحد من سكّان دماغي: "هذه المرأة تبدو خطيرة ومُهابة وهي عصبية. دعها تمضي". يقول واحد آخر: "بل تبدو مثيرة للشفقة وتستاهل حضن يحتوي كل هذي الأنوثة الحزينة". يقول الأوّل: "قلبك ضعيف، قلبك فقاعة وستنفثئ في أيّ لحظة يا عم الرومانسي". يقول الثاني: "ضمّها، واسِها، طبطب عليها، أدخل الفرح إلى قلبها واعرض عليها الزواج". يصرخ الأول: "أحّا. إيّاك". تقول نُورا: "سلام". أنتبه على سلامها، أنفض رأسي وأسلّم عليها، أطلب منها أن تطمئنّي عند وصولها للبيت، تومئ ببلادة ثم تمضي.

***

وفقاً للتوجيهات، أقدّم لسيادتكم ورقة بالمعلومات التي استطعت

التوصل لها بخصوص ماركو عادل رئيس القسم القبطي:

1. أخوه إدوارد كان رئيساً للقسم القبطي في مؤسسة الأخبار القومية، وهاجر إلى الولايات المتحدة قبل ثلاث سنوات.

2. أخوه نفسه كان رئيساً للقسم القبطي في جريدتنا حتى آخر يوم قبل سفره.

3. تولّى ماركو رئاسة القسم من بعد إدوارد.

4. سافر ماركو إلى الولايات المتحدة مرتين خلال السنوات الثلاث الأخيرة.

5. كثير السفر، وآخر سفرة له كانت إلى جمهورية أرمينيا في ذكرى مذبحة الأرمن الموافقة الرابع والعشرين من أبريل.

6. في سفرته الأخيرة ألقى كلمة في كاتدرائية إتشميادزين بالنيابة عن الوفد الشعبي المصري.

7. ماركو وصف ما حدث مع الأرمن بالإبادة العرقية وفقاً لتعريف رفاييل ليمكن.

8. السفير المصري في أرمينيا لم يحضر قدّاس إتشميادزين. السفير المصري قدّم تعازيه للشعب الأرميني ووصف أحداث 1915 بالمجزرة البشعة. ورفض وصفها بالإبادة العرقية.

9. كتب ماركو مقالاً عن المذبحة الأرمنية، منشوراً على موقع أرمن الشام، يصف فيه المذبحة، ويلوم الدبلوماسية المصرية لعدم إقرارها بالإبادة العرقية. المقال في مجمله يمضي عكس القرار السياسي الوطني بعدم الانحياز في الصراع التركي الأرميني. (مرفق رابط للمقال).

10. يضاف للنقطة السابقة، رصدت لماركو صور على شبكة الإنترنت تجمعه ببابا الكنيسة الأرثوذكسية الأرمنية تحمل تاريخ هذا العام. (مرفق رابط للصورة).

11. وجدت له صوراً أخرى تجمعه برجال دين من الكنيسة الأرثوذكسية الإثيوبية.

12. الغريب أنني لم أجد ولا صورة لماركو مع قداسة بابا الكنيسة القبطية!

13. ماركو الآن يقضي إجازة في مدينته، الإسكندرية.

—33—

ضِفدع وحيد

في وسط الزراعات، أجلس رفقة الحاج كرم أبو المكارم، الذي أصرّ على أن يغدق عليّ من اسمه ويكرم وفادتي بوليمة نتناولها في الغيط. يقول إنه طلب من ابن الجيران أن ينقل له طاولة وثلاثة كراسٍ من البيت إلى الغيط، ومن ثم يرجع ليعاونه في نقل أطباق الفول بالزيت الحار والبيض بالبسطرمة والطعمية والجبنة البيضاء والطُرشي والبطّيخ التي جهّزها بنفسه. أتأمّل الوليمة الليلية الهادئة، المقامة بين غيطين لشجيرات الليمون البنزهير، فيما تسري نسائم عليلة تنعش القلب، وتساهم في تأجيج نيران قوالح الذرة المشتعلة على مقربة، ويتوسّطها برّاد الشاي. جوقة صراصير الغيط تشدو بمعزوفتها الأزلية، وفي الخلفية البعيدة، ضفدع وحيد يقضي ليله في النقيق على حبيبته الغائبة.

بفم ممتلئ بلقمة طعمية ساخنة وشهية، أشيد بنَفَس الحاج كرم في الطهو، فيقول إنه يطهو لنفسه مذ رحلت زوجته قبل عشر سنوات، وإن محمد الله يرحمه لطالما أكل من صنع يديه، قبل أن يحترف هو نفسه إعداد الأطباق المنزلية بمختلف أنواعها، وهو الأمر الذي ساعده على التعايش مع غربته في القاهرة...

أشعر بخفقة زائدة في قلبي، لماذا تستدعي محمد بيننا الآن يا حاج؟ سيطالنا

الألم نحن الاثنين. يقول: "أصرّ يدخل كليّة الإعلام"، فتقول ذاكرتي: "المكالمة مسجّلة ومُرفقة". تومض الكلمة في رأسي والحاج يحكي عن ابنه، يقول إنه كان صحفياً شاطراً، هذه نقطة لا خلاف عليها. "تمكنت من رصد..." تتداعى في قعر جمجمتي، شذرات من تقريري ضد محمد، فيما يواصل الحاج جلد ذاكرتي: "كان هيتجنن على الجايزة بتاعت الصحافة دي اللي في دُبي". "زمرة الفارس الأبيض". أنا لم أعد أسمعك يا حاج. أريد أن أقول ذلك، "تطاول بالسباب... مكافأة إجادة... لتدخين الحشيش... البي بي سي... ضد رئيس التحرير..." معايا يا عُمر؟

يلطشني سؤال الحاج، وينتشلني من التهويمة، لا يا حاج أنا لست معك، قبل ثوان كنت في مكان آخر. لكني رجعت.

– معاك. الله يرحمه ويرحمنا.

يدقق الحاج في وجهي ثانية، ثم يضع لقمة فول كبيرة في فمه، ويطحنها بفكّه، الذي يواصل إصدار طقطقات خافتة.

بعد العشاء، يسكب الحاج بعض الشاي، ثم يطلب سيجارة لأول مرة، يقول إنه أقلع عنها منذ سنوات، لكن أجواء الليلة تغريه بنفسين ساخنين، أناوله سيجارة، يمدّ يده الطويلة ويشعلها من قوالح الذرة المتكوّمة على الأرض، يسحب نفساً، يلتفت ناحيتي ويواصل:

– وانتا ماتجوزتش ليه يا عُمر؟

كنت أعرف أنه سيتطرق إلى هذا الموضوع، وجهّزت إجابة معلّبة لألقيها في وجهه:

– النصيب لسّه ماجاش، ما قابلتش حد يلفت نظري.

نظراته مع كل كلمة أنطق بها، قالت لي إنني كذّاب. يسحب الحاج نَفساً آخر من سيجارته ثم يقول:

– ومين قال إنك لازم تستنى لحد ما تقابل، إنتا ممكن تدوّر. هو إنتا عندك كام سنة؟

– اتنين وتلاتين.

– يبقا سيبك م الكلام الفاضي اللي انتا شاغل نفسك بيه والحق اتجوز. الست الوالدة هتعمل اللي هي عايزاه وانتا مش هتعرف تمنعها، وملكش أصلاً إنك تمنعها. فانتا لازم تنشغل بنفسك، والله يا عُمر أنا كان يستحيل أسيب محمد الله يرحمه يوصل للسن دا من غير جواز، قبل كدا بخمس ست سنين يكون في بيته ومتجوّز. انتا لازم تبتدي تدور على عروسة، اسمع مني، أنا مش عايز اكبّرك، اعتبرني أخوك الكبير، والله يا عُمر نَفَس الست في البيت حاجة تانية خا...

أترك الحاج سارحاً في نصائحه، وأشعل سيجارة، أفتح صمامات أذني، لأسمع من واحدة، وأسرّب ما سمعته من الأخرى. أرشف الشاي في جرعات كبيرة. ينهي الحاج معزوفته الأبوية المملّة والحزينة. ثم يسود الصمت، لا يتخلله سوى صوت صرصار الغيط مع خلفية بعيدة لضفدع وحيد قضى أمسيته برفقتي، في النقيق على حبيبته الغائبة.

—34—

نُورا XII

أنا أُورق وأُزهر وأتمدّد في ثناياكِ

مرّت ثلاثة أيام منذ رفعت تقريري عن ماركو إلى اللواء، غير أنهم لم يعلّقوا أية ورقة بخصوصه عند الاستقبال. ثلاثة أيام وأنا أدخل من هذه البوّابة وأصعد هذه الدرجات لأسلّم على هذه الموظّفة ثم أستدير لأرى الجديد في المؤسسة، فلا أجد شيئاً عن ماركو. وما يزيد الأمر غموضاً، استمرار غيابه منذ أيام، أسبوعين ربما.

أترك الاستقبال وأتجه إلى صالة التحرير، أطل على قسم الديسك فأجده غاصّاً بمحرري الشيفت الصباحي. نُورا تجلس بينهم، منهمكة في ترميم موضوع ما، أحيي الأستاذ داود رئيس القسم، أسلّم على الموجودين، وألوّح لنُورا بابتسامة صباحية. تهزّ رأسها بهدوء ثم ترجع لموضوعها وتواصل الاشتغال عليه. أشعر بالحرج من الاستقبال الفاتر، ترفّ عيني وأنا ألمح ابتسامات خافتة على بعض الوجوه. فأتركهم وأتّجه إلى مكتبي، عم محمود يوافيني بالشاي دون أن أطلبه، يضع الصينية على مكتبي ويقول:

– اللوا طالب حضرتك تطلعله.

أزدرد ريقي، ألعن مفتتح هذا اليوم الخرا، أرشف من الشاي ثم أهزّ رأسي لعم محمود، الذي يقدّر مدى تعكّر مزاجي، فيستأذن مؤثراً السلامة، وينصرف.

أشعل سيجارة، وأفكّر في سبب الاستدعاء، أشعر بقلبي منقبضاً، أسترخي في الكرسي وأرشف الشاي. أحاول تخمين الاسم الجديد الذي سيكلّفني به اللواء. فلا أصل لأحد، أفكّر أنني في الحقيقة لا أفهم منهج اللواء في اختيار ضحاياه. أسحب نفَساً من السيجارة، وآخذ رشفة أخيرة من الشاي ثم أنهض متجهاً إلى الطابق الرابع.

عند مدخل مكتبه يقف عوض وتايسون، أسلّم عليهما ثم أستأذن في الدخول، يستقبلني اللواء بابتسامة ويطلب مني الجلوس، يجري مكالمة سريعة فيما يواصل البحث عن غرض ما في أدراج مكتبه، يبدو مشغولاً في أمور مهمة. اللواء ورغم حجمه الصغير يبدو كدانة مدفع محشوة بالبارود، قذيفة أطلقها القدر لتستقر في هذه المنطقة وتؤذي أكبر قدرٍ من البشر، تحت مسمّى الحفاظ على أمن المؤسسة.

ينهي مكالمته، ثم يستدير لي ويسألني:

– دا كل اللي قدرت تكتبه عن ماركو؟

يربكني سؤاله، أبتسم متفادياً أن أتلجلج أمامه:

– للأسف معاليك معرفتش أوصل لحاجة تانية.

– يعني إنتا ماتعرفش تجيب معلومة، تقوم مجمّع شوية قصاقيص من هنا وهناك وتستنتج منها معلومات هبلة وتقّدمها لي وكإنك جايب الديب من ديله؟ هو إنتا شايفني عبيط يا عُمر؟

تتسع عيناي، لا أعرف بماذا أردّ، واللواء يركّز عينيه في عينيّ، تنبت قطرات العرق على جبهتي، وأشعر بثقلٍ كبيرٍ على كتفيّ، ترتعش شفتاي بكلمات لن تخرج أبداً، أزدرد ريقي ثم أقولُ "العفو معاليك..." وأسكت، يواصل اللواء سلخ جِلد وجهي بعينيه، وأنا أنقل نظري بينه وبين كأس الماء الموضوع أمامه،

أحاول أن أقول أي شيء، إلا أنه لا يخرج. يعتدل اللواء ويسند كوعيه على المكتب، يقول:

– مش هطوّل عليك يا أستاذ عُمر. هستناك كمان أسبوع، وماركو أجازته خلصت النهار دا وهييجي بكرة الشغل... فرصتك بقا.

– تمام حضرتك.

– اتفضّل.

***

في مكتبي ألعن دين أم ماركو وتاريخه. أشعل سيجارة بينما النبض لا يزال يسري في أذنَي الساخنتين. أمسك بالموبايل وأكتب رسالة نصية: "تعالي مكتبي"، أستخرج اسم نُورا ثم أضغط زر الإرسال. أظلّ محملقاً في الشاشة حتى أتأكّد أن رسالتي وصلتها. أضع الموبايل أمامي ثم أنادي على عم محمود وأطلب منه كوبايتين من الشاي، أقول لنفسي إن الشاي سيأتي قبل نُورا، إحساسي يقول ذلك. أشعر بالإحباط، منها ومن اللواء، فأزايد على نفسي وأراهن أنها ستأتي بعد أن يبرد الشاي. الغيظ يملأ كل تجاويفي، أمسك الموبايل لأفحص توقيت صدور الرسالة وأقارنه بالساعة في هذه اللحظة. أربع دقائق انقضت. عم محمود يدخل حاملاً صينية الشاي، يضعها دون أن ينبس بكلمة، تلتقي عيني بعينه فيشيح بعيداً ويستأذن في الانصراف. بعد دقيقة تدخل نُورا، ألقي بنظرة خاطفة إلى كوبّاية الشاي فأرى البخار يتصاعد منها، أشعر بارتياح نسبي وقد خسرت رهاني مع نفسي، أسألها:

– إنتي إيه بقا حكايتك بالضبط؟

– حكاية إيه يا عُمر؟

– ماجيتيش إمبارح... ومبوّزة في وشي بقالك كام يوم.

– إنتا اللي مبوّز وشكلك قرفان.

تربكني ملحوظتها، أنجعص في كرسيّ، أشعل سيجارة ثم أردّ:

– أيوا متضايق. وبقول إني متضايق. متضايق عشان لسه الريّس مسمّعني

كلمتين. إنتي بقا متضايقة ليه؟

تتنهد نُورا بعمق، تتناول سيجارة من علبتي، تدسّها بين شفتيها، لكنها تلفظها وتضعها على المكتب قبل أن تشعلها، تلتمع عيناها مجدداً، فأشعر بالذنب، تقوم وتقول:

– فاضي الساعة ستة؟

– فاضي.

– اعزمني على قهوة في الكافيه اللي ف الميدان وأنا هحكيلك... تمام كدا؟

– تمام.

– طيّب، أنا رايحة أكمّل شغل.

***

المقهى ذاته، الشيشة ذاتها، عصير الفراولة نفسه، وحتّى الندّل، إلا أن نُورا ليست هي نُورا. هكذا أشعر وأنا أراقبها داخلاً من باب المقهى القريب. الساعة السادسة وثلاث دقائق، ونُورا تجلس في الزاوية الداخلية من المقهى، أخطو ناحيتها واضعاً احتمالات عدّة لما ستقوله: بحاجة لمبلغ مالي. أو أرهقها روتين العمل. أو دخلت مرة أخرى في نزاعات مع أبيها وحماتها. إلا أن نُورا، وبعد أن تستقبلني بابتسامة باهتة، تبدد توقّعاتي كلها، وتباغتني بما لم يخطر على بالي:

– كنت فاكرة إنك هتعرف لوحدك يا عُمر. أنا متضايقة أوي ومخنوقة، لأن علاقتي بيك اتحوّلت لعلاقة سرير بس، مفيش عزومة مفيش سينما مفيش خروجة. مفيش حتى قعدة في البيت من غير سكس. يا عُمر دا أنا آخر مرة بقولك البيريود[1] قلتلي مصّي. أنا مكسوفة من نفسي وأنا بقولك الكلام دا والله. بس هتكسف من نفسي أكتر لو فضلت راضية بالوضع دا... حط نفسك

1 الدورة الشهرية

مكاني... دا حتى البنت قلتلي عايز أشوفها ومارجعتش تسأل عنها تاني...

في كلماتها الأخيرة يرتعش صوتها، وتترغرغ عيناها، إلا أنها تكتم دموعها. من بعيد ألمح النادل وهو يراقبنا في صمت، لا بدّ أنه يتساءل عن سرّ هذا الثنائي الذي يأتي إلى هنا من حين إلى آخر لتبكي البنت ويسكت الرجل! لا أجد تفسيراً أقدمه للنادل، ولا أجد اعتذاراً أقدّمه لنُورا.

هل أنا أناني إلى هذا الحد؟

أنا آسف يا نُورا، آسف جداً، أنا متفاجئ من كلامك هذا، صدّقيني والله لم أنتبه أبداً لسلوكي، لم أدرسه إحصائياً- كنت فقط أمارس نفسي وأسرّي عن رجولتي المقموعة منذ سنين، وأنتِ، أنتِ يا نُورا، كنتِ طوق النجاة الذي انتشلني من المستنقع الذي كنت أغوص فيه حتى عنقي. لقد حنّطوني يا نُورا، حنّطوني حتى ضمرت أعضائي وانكمشت ثقتي بنفسي، عشت سنيناً لا أقرب النساء، مثل قديس زاهد، أو للدقة، مثل شخص يدّعي أنه قديس وزاهد، لكنه في الحقيقة لا يعدو كونه مجرد رعديد جبان، حصور، بتول، عاجز، متوحّد، عنّين... سمّيها كيفما تشائين يا نُورا... سمّيها على هواكِ، لكن بالله، رجاءً، لا تقولي إني مسعور، ولا تقولي إنني أستخدمكِ وأستغلك، لأنني لا أفعل ذلك، أنا أعيش عبرك، أمارس نفسي وطبيعتي فيكِ، أنا أتمدّد وأورق وأزدهر في ثناياكِ، لأنكِ أنت وسيطي مع هذه الحياة.

أترك تلك الأفكار تدور في رأسي، وأقطع الصمت الذي عشش على طاولتنا:

- نُورا...

- نعم!

أستجمع نفسي، أستحضر نصيحة أمي ونصيحة الحاج كرم، أستحضر أيام الناسور، والمبلغ المالي الذي أخَذَتْه ثم أعادته، أذهب بعيداً وأستحضر ليلة شقة شارع معروف مع نور ومحمود، وبين كل ذلك، لقاءات حميمة جمعتني بنُورا الحزينة، التي يصعقها كلامي:

- ما تعملي فيّا جميل وتتجوّزيني.

—35—

كيف عرفت يا عندليب؟

اليوم تزوّجت أمي، أو ربما تزوّجت يوم أمس، لا أدري. أتفرّج من خلال صفحتها الشخصية على صورها مع عريسها الأشيب الوسيم ولا أكترث بالتواريخ. أتذكّر مطلع رواية الغريب لألبير كامو: "ماتت اليوم أمي، أو ربما ماتت يوم أمس. لا أدري". أستدعي عم محمود وأطلب قهوة هذه المرّة تفاعلاً مع الأحداث الحزينة، مع الفأس التي وقعت في منتصف رأسي، في نافوخي. لذلك أوصيه بأن تكون سوداء سادة تناسب مزاجي.

أغلق صفحة الفيس بوك، وأقرر أن ألهي نفسي في أيّ شيء إلا هذا الوجع. تلقائياً تقفز نُورا إلى رأسي. قالت إنها ستحتاج وقتاً قبل الرد عليّ، وإن بدت سعيدة وراضية بعد عرضي لها بالزواج، إلا أنها بدت متفاجئة ومرتبكة أيضاً. وبالأمس، بعد أن روّح كل منا إلى بيته، أرسلت لي قصيدتها الأولى بعد انقطاعٍ لسنوات، صحيح أنها قصيدة متواضعة، إلا أنها لمستني.

يدخل عم محمود بفنجان القهوة وكأس ماء، فأتذكر اللواء، وماركو، ومحمد منصور، أفكّر أن أطلب من عم محمود أن يستدعيه إلى مكتبي مجدداً، غير أنني أتذكّر أن اليوم هو إجازته وأنني سبق وسألته من قبل ولم أصل لشيء واضح.

ينصرف عم محمود ويغلق الباب برفق. أشعل سيجارة، وأرشف من القهوة، أفتح بريدي الإلكتروني لقراءة النصوص الجديدة وانتخاب بعضها للنشر، لا أجد سوى ثلاثة نصوص، أقرأها سريعاً، وأحكم عليها جميعاً بالرفض، أغلق بريدي الإلكتروني، وأفتح الفيس بوك لعلّ الواحد يلتهي في أيّ شيء يطرد هذا السأم. فأجد نفسي مجدداً في مواجهة صورة أمي في عُرسها الثاني، عرسها الذي حدث بعد أن دخلت في عقدي الرابع. ينقبض قلبي مجدداً ويعتكر مزاجي. الحاج كرم يهفّ على بالي، أقول لنفسي "والله صح!"، وأقرر أن زيارة للحاج قد تكون مفيدة، ترطّب على قلبي، وتريحني من هذا القلق، المهني، العاطفي، والأسري...

***

جالساً في الكرسي الأمامي إلى جوار السائق، أفكّر في نُورا، أفكّر أيضاً في أنني لم أكتب أيّ شيء منذ فترة طويلة، لم أشخبط أيّ نصوص، وأيضاً لم أراسل الجريدة اللبنانية ولا الموقع الخليجي بأيّ أعمال إضافية. غير أنني أشعر الآن، هنا على هذا الطريق الصحراوي الواصل بين الجيزة والفيوم، بأن روحي ممتلئة إلى الحافة، والموسيقى التي تنساب من السماعتين الصغيرتين إلى أذني، إلى مطرقتي وسنداني، تترجم نفسها إلى نقرات على لوحة المفاتيح الافتراضية المرسومة أمامي على شاشة الموبايل:

أنتِ والنبيذ والأعمال الإضافية.
لماذا أتذكّر بوكوفسكي الآن؟
أنت وصور السيلفي التي التقطناها
ما رأيك في شهر عسل في بيروت؟
أنت وأزمة الرايترز بلوك
أيّهما المفضل لديكِ: وليد طاهر أم مخلوف؟

أنتِ وأنا ووصلة من النميمة...
الأوبرا أحبُّ إليّ من ديدوس كافيه
أنتِ طفلةٌ تلهو على مقربةٍ من أبويها
هل سينشر رئيس التحرير صفحتي هذا الأسبوع؟
أنتِ... تحبينني عندما أهذي
بوكوفسكي العرص يعاود الظهور
أنتِ وكل أزهار العالم
الله يرحمك يا عم يحيى الطاهر عبد الله
أنتِ... فقط
وأنا النقاط بين "أنتِ"... و"فقط"

أستغل ما تبقّى من الطريق في المراجعة والتنقيح، وعندما تدخل سيارة الميكروباص حدود محافظة الفيوم، أرسل النص لنُورا، منتهكاً وعدي لها بترك مساحة خاصة تتيح لها التفكير. أخلع السماعتين من أذني، ثم أترجّل من السيارة قاصداً موقف الميكروباصات المتجهة إلى قرية إطسا. بعد دقائق تصلني رسالة منها: "حلوة أوي... عَجَبتني"، فأشعر بالنشوة، وأفكّر في قراءة النص على الحاج كرم، الذي أشك في استيعابه لهذا اللون من الكتابة غير الموزونة ولا المقفّاة. لكني سأقرأه عليه. وسأكتب المزيد أيضاً عندما أرجع إلى البيت.

***

لم أتذوّق شاياً أجمل من الموجود هنا، شاي خرز ثقيل يتغلغل في نسيج الدماغ. أمّا بالنسبة لليمون، فالواحد لو فرد ذراعه عبر هذا الشبّاك، فقط لو فرد ذراعه، فسيقطف ليمونتين طازجتين فوّاحتين. ينتبه الحاج كرم لحالة الوجد والشجن التي تعبرني كسحابة، ويلحظ شرودي عبر النافذة، يقول:

"شكلك رايق النهار دا". ثم يفتح التلفزيون على قنوات الأغاني الكلاسيكية، يقلّب بين المحطات التي رتّبها لتكون في أعلى القائمة، يترك قناة تذيع أغنية لمحمد فوزي، وأخرى تبث أغنية لناظم الغزالي، يقول: "التالتة ثابتة"، ويقلب، فيظهر عبد الحليم على الشاشة، ليفضحني، على مرأى ومسمع من الحاج، ويقول لي دوناً عن كل الناس: "في حياتك يا ولدي امرأةٌ". أقول داخل رأسي: "كيف عرفت يا عندليب؟". ويقول الحاج: "والله ما كدبت يا عُبَد". ثم يرمقني بنظرة العالم ببواطن الأمور. أقول مؤمّناً على كلامه: "انتو الاتنين صح". ثم أنجرف في الحكاية. فأقص على الحاج كل شيء، نُورا منذ اللحظة الأولى، نُورا منذ الثورة وشقة شارع معروف، واللقاء بعد سنوات صدفةً في وسط البلد. اختفاء الفلوس. عودة الفلوس. الناسور ولياليه، لقاءاتنا في شقتي، لقاءاتنا في الأوبرا ومقاهي الدقي والمهندسين ووسط البلد، لقاءاتنا في الشغل، وريم الصغيرة المتجهّمة... أسهب في ذكر التفاصيل، والحاج يستمع إليّ، مسنداً خدّه على كفّه العملاق، الذي يبدو كما لو كانت أصابعه تضم خمس عقلات بدلاً من ثلاث... يخلص الشاي ويقوم الحاج لتحضير المزيد، فأرافقه إلى المطبخ، مواصلاً قص حكايتي، مع العادية السيمترية، التي، وبعد كل ما خضناه معاً، أشعر بانجذابٍ عارم ومبهم ناحيتها.

أواصل سرد الحكاية، فيقول الحاج: "مممم" و"آه"، وأتوغّل في قصتي، فيهزّ خده الذي ما زال مسنوداً على كفّه الكبير، أقرأ عليه النص الذي كتبته قبل قليل فيبدو طروباً ومنسجماً. ومع اقتراب كوبّاية الشاي الثانية من نهايتها، واقتراب سيجارتي الرابعة من آخرها، أنهي الحكاية، بعرض الزواج الذي تقدّمت به قبل ثلاثة أيّام، والذي سأتلقّى ردّاً عليه بعد ثلاثة أيام أخرى.

يتنهّد الحاج ثم يطلب سيجارة، أحاول أن أرفض، إلا أنه يصرّ، فأعطيها له، يتناول ولاّعتي ويشعلها، ثم يقول: "مبروك يا عمر". يقول أيضاً: "مليش دعوة بكل اللي قلته عنها، أنا ليا دعوة بس بِدا". ويشير صوب قلبه، ثم يختتم:

"دي حياة جديدة. وكل الناس تستحق بداية جديدة".

***

قبيل مغادرتي يعطيني الحاج كيساً كبيراً مليئاً بالليمون الطازج، وأعطيه المظروف الصغير الأبيض، فيقول إن مصاريفه بسيطة، وإنه لم يصرف المبلغ الأول بعد. إلا أنني أظلّ على وضعي، مادّاً يدي، مقدّماً ابتسامتي البلهاء. فيتناول الحاج كرم المظروف، ويشكرني. أطلب منه ألا يشكرني، فالشكر مستحق لصندوق الزمالة التكافلي الذي دشّنه العاملون بالمؤسسة، وأؤكّد أن مبلغاً بسيطاً سيصله مطلع كل شهر.

غريب أن ترى إنساناً عملاقاً يبكي، هذا ما قلته لنفسي، وأنا أرى الدموع تفيض من عيني الحاج كرم، بينما ينحني هابطاً من عليائه، ليحضنني، فأفتح ذراعيَ، لأضمّه أنا أيضاً، وأضم معه كل الطقطقات التي تصدر عن مفاصله المتآكلة.

—36—

انفجار أوّل

مفاجأة من اللواء

لم يأت ماركو إلى الشغل كما قال اللواء، ولم يعد من المقبول أن أسأل عنه مجدداً. حفرت وراءه قدر استطاعتي، بل وسألت عنه أغلب الزملاء، حتى جيهان أبو زيد حاولت أن أستدرجها في حديث عابر، الأمر وصل إلى مراسلة نانو في النمسا في محاولة للاسترشاد إلى طرف الخيط، وهذا الأخير أعادني إلى المربع صفر، باقتراحه أن أحاول مع محمد منصور!

لا فائدة. هذا ما يدور في بالي وأنا في الطريق إلى البيت. كل محاولاتي باتت دون طائل، والآن صرت أفكّر جدّياً في التواصل مع اللواء لأخبره بأنني لم أستطع أن أصل لأيّ شيء، وأن الأمر أكبر من قدراتي. أمسك بالموبايل، وأفتح أجندة الأسماء، أكرُّ القائمة باحثاً عن أي اسم بوسعه أن يمدّني بأي معلومة، أتعثّر في اسم بطّة، أتذكّر أختي التي لم أتواصل معها منذ أبلغتني بمخطط زواج أمي. أضغط على زر الاتصال، فيأتيني صوتها ناعساً، أتذكّر فوارق التوقيت بين القارتين، لكن بطّة تقول إنها أفاقت خلاص وإنها تفتقدني. تقول أيضاً إن

ماما زعلانة مني لأني لا أتصل كثيراً، وإنها تسكن بالقرب منها. بطّة تؤكّد لي على أن عمّو منير رجل طيب ومهضوم، وأنها بدأت تتعايش مع فكرة زواج ماما. يؤلمني ذلك، فأغيّر دفّة الحديث، وأسألها عن بنتها الصغيرة، وغيرة أخيها الأكبر منها. تضحك بطّة وتقول إنهما متفاهمان، وإن الولد يحب أخته ويلاعبها ويقول إنه لولا رائحة الـ "يَك" في حفّاضاتها لسمح لها بأن تنام إلى جواره في سريره الخاص. أضحك، وتضحك بطّة، ثم تسألني عن أحوالي، وكيف تمضي الأمور معي في الشغل، فأخبرها أني ترقّيت، وأن لي وضعاً مهمّاً في جريدتي، وأن صفحةً أسبوعية توزّع آلاف النسخ، أقوم بالإشراف عليها وحدي. يسعدها ذلك، وتسألني وهي تتثاءب: "طيب ناقصلك إيه عشان تتجوّز؟"

– ولا حاجَة.

– طيّب يلاّ بقا اتجدعن وشوف عروسة.

– إيه دا هي ماما ماقالتلكيش؟ مأنا كنت شفت عروسة بالفعل، وقلت لماما عليها.

– آه مهي قالتلي. بس لما لقيت إن مفيش حاجة حصلت قلت تلاقي الموضوع خلاص بقا.

– لا أبداً، هي لسه موجودة، وخدي الجديد بقا. بس الكلام دا بيني وبينك وما تقوليش لماما إلا لما أقول لك تقوليلها. أنا اتقدّمتلها. وهي تقريباً موافقة، بس قالت لي هرد عليك الرد النهائي اليومين الجايين. دلع بنات بقا.

– مبروك يا عُمر. وربنا يتمم لك على خير. بس دلع بنات ازاي وماما بتقول لي إنها أرملة ومخلّفة؟

– دلع بنات يعني مُحن نسوان.

– مُحن نسوان؟

– أيّاً كان بقا، المهم إني هعرف ردّها قريّب.

تستفسر بطّة عن بعض التفاصيل، اسم العروس وعملها وأهلها وشهادتها الجامعية ومحل سكنها وسنها وسن ابنتها. تسأل أيضاً عن زواجها الأول، تبدو

كحماة تحت التمرين، لكنها حماة محبّة، تدعو لي بالسداد والتوفيق، وتؤكّد أنها ستدعوني مع العروس لقضاء شهر عسل حول بحيرة تاهو، وأن الأجواء في المنطقة بين كاليفورنيا ونيڤادا معتدلة أغلب أوقات العام. أتحمّس للفكرة، وأتخيلني مع نُورا في كوخ خشبي يقع على ضفاف البحيرة، نصل الليل بالنهار، ونخرج في جولات إلى الطبيعة المحيطة بتاهو تلك...

ينفد رصيدي بسبب التعريفة الدولية فتنقطع المكالمة، وبطّة على الأرجح عادت للنوم لأنها لم تعاود الاتصال. أشعر بالرضا، رغم الألم الخفيف في موضع الناسور، إلا أن ذلك لا يشغلني، الحقيقة، لا يشغلني الآن سوى أن تقول نُورا: "نعم"، لأحملها إلى بحيرة تاهو، ونتوه سوياً في الماء والطبيعة.

تأخذني سيرتها، أشعر بالاشتياق لها، منذ قررت أن تبتعد فترةً لتفكّر، منذ أن تدخّلت لدى رئيس التحرير التنفيذي لأمنحها إجازة، وأنا أشعر بأن هناك شيئاً ناقصاً، قطعة مفقودة من أيامي، أيامي التي قضيتها في متابعة أفلام وثائقية حول الافتراس في الطبيعة. الموضوع بدأ بالعناكب والعقارب، ومرّ بالضباع والسنوريّات كلّها، وانتهى بحيتان الأوركا والأخطبوطات العملاقة... لا أعرف السر وراء ذلك الشغف الذي انبثق فجأة. شاهدت التماسيح وهي تفترس الجواميس البرية، وعرفت كيف تشكل الأسود ميليشات لاصطياد الحيوانات الأكبر حجماً، وحتى الثعابين، الثعابين! أخذت أتابع حلقات وثائقية تُشرّح جماجمها وقاذفات السم في أفواهها، كانت تلك اللقطات سلواي وعزائي، وكنت أستمتع بحق وأنا أتفرج على مشاهد الافتراس، والأشلاء، والدماء، وحتى أكل الأجنة الحية من بطون أمهاتها...

انتشليني من هذه الغابة يا نُورا، انتشيليني من الحفرة... وقولي إنك موافقة.

***

بتُّ أتشاءم من عم محمود عندما يبادر بتقديم كوبّاية الشاي بالليمون دون أن أطلبها. تلقائياً أعرف أن اللواء أمره بأن يستدعيني. فأترك المكتب وأتجه إلى

الأسانسير، مفكّراً في الأعذار التي سأقدّمها له، وعلى رأسها أنني موشك على الزواج، أو بالأحرى موشك على تلقّي موافقة العروس على الاقتران بي، هذا بخلاف متاعبي الصحية، المتمثلة في التهابات الناسور التي تعاودني من حين لآخر، ووزني الآخذ في الزيادة.

عند مدخل مكتبه، يقف بعض أفراد الأمن، ومعظمهم أصدقائي، إلا أنهم لا يحاولون ممازحتي كالمعتاد، عندما يرون حاجبيّ المنعقدين وخطوط العرق على صدغي وجبهتي. يقول سبيكة: "اتفضّل يا برنس اللوا مستنّيك". أومئ له وأدخل، لأجد اللواء كما هو منذ أول لقاء، ضئيل ومُهاب ومنخرط في مكالمة هاتفية، حياة هذا الرجل في موبايله على الأرجح، والفاجر الذي سيستطيع سرقة الموبايل أو تهشيمه ربما يقتل هذا الضئيل المخيف.

بعد دقائق، ينهي اللواء مكالمته، التي يبدو أنها كانت مع رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير، رجلنا في مجلس الشعب الذي يواجه صراعات شرسة وتوازنات دقيقة تحت قبّة البرلمان.

يقول اللواء:

– ها يا عمّور... طمّني... إيه أخبار ماركو؟

– مفيش أخبار معاليك، الحقيقة إني ماعرفتش أوصل لحاجة، وماركو بقاله شهر تقريباً مابيجيش الشغل، حضرتك قلت إنه هييجي بس ما جاش. وأنا شمشمت وسألت بس مفيش حاجة جديدة.

– سألت مين؟

– زمايلنا المحرّرين، محمد منصور وزينة عتريس وأنس عبّود و...

– سألت نُورا جابر؟

تأخذني المفاجأة، لثوانٍ لا أستوعب قصد اللواء، وما إذا كان جاداً أم أنه فقط يتلاعب بي كما اعتاد أن يفعل.

– نُورا جابر اللي ف الديسك؟

– أيوه.

– لا يافندم ما سألتهاش... إشمعنى نُورا جابر؟ اللي أعرفه إن محمد منصور صاحبه جداً أو أقرب صحابه يعني.

– ماركو جه مدّ أجازته إمبارح وانتا نايم ف الدُرَة... المهم... الشباب في الأمن بيقولوا إنه بيعدّي بعربيته ع الناحية التانية م الشارع وبيستنى نُورا دي تركب معاه.

"بتهزّر يا ابن القحبة؟"... أتساءل داخل حدود دماغي.

أتمنّى أن ينتهي هذا اللقاء الآن، أو أن تتزلزل الأرض من تحتنا ويختفي اللواء في قلب شرخ يظهر خلفه في الحائط. ماذا يقول هذا الرجل؟ أمدّ يدي وأرشف من كأس الماء الموضوع أمامه. منذ التحقت بالعمل في المؤسسة، وأفكّر في أن اللواء ربما لا يعرف طبيعة العلاقة بيننا.

مع آخر جرعة أردّ:

– تحت أمر معاليك، ونُورا أنا ليّا معاها كلام. هحاول أعرف منها.

– لا إنتا مش هتحاول. إنتا هتعرف.

– حاضر.

—37—

أفتِني في رؤياي

يجلس الحاج كرم متّخذاً وضعيته المفضّلة: مائلاً إلى اليمين ومسنداً خدّه على كفّه، يسمع صوتي المختنق وأنا أحكي له قصة مبتورة عمّا جرى. لا آتي فيها على سيرة اللواء والتعاون بيننا وتكليفه لي بترصّد ماركو، فقط أقول إن أصدقاء لي رأوا نُورا وهي تركب سيارة زميلنا في العمل، وإنني كدت أصاب بجلطة وهم يروون لي بطريقتهم السوقية عن زميلتنا ذات النهدين الكبيرين التي اصطادت أحد رؤساء الأقسام رغم أن كل منهما يعتنق ديناً مختلفاً. أصارحه بأن الشكوك ساورتني الآن، وانتبهت إلى تزامن إجازتيهما، وجفاء نُورا في الفترة الأخيرة، وتباعد الأيّام بين زياراتها لي... أنا حزين يا حاج كرم، حزين وبائس ولا أعرف كيف أتصرّف، جئتكَ اليوم لتفتني في رؤياي، أفتِ هذا الكفيف الذي غرسوا المخارز في عينيه...

يستأذن الحاج إلى المطبخ ليعدّ الشاي، يغيب لدقائق قليلة أقضيها في هواجسي وظنوني، قبل أن يقبل حاملاً صينية فضيّة صغيرة، وهو يقول:

– إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيّنوا... وإن افترضنا صحة كلام صاحبك دا... فإنّ بعضَ الظنِّ إثْمْ... يعني يمكن بينهم شغل مثلاً، أو دراسة، أو توصيلة، أو

حتى صداقة عادية يعني، محمد الله يرحمه كان بيحكيلي عن جماعة الصحفيين وإنهم بيخرجوا ويسهروا ويتصاحبوا زي الخواجات كدا... وبعدين هو انتا مش المفروض متّفق معاها على الموضوع دا، ولّا لسّه كل واحد ع البر بتاعه؟

هذا الكلام لا يطمئنني يا حاج، حتى أنت كلماتك باتت تخزني؟

– لا مش متفقين على حاجة.

– طيّب خلاص. لحد هنا انتا ماحدش داسلك على طرف.

أدقق في وجهه الطويل، ولحيته البيضاء النابتة. في هذه اللحظة بالذات أشعر بأن الحاج كرم يستحق صفعة على خِلقته.

– هي ها ترد عليك إمتا صحيح يا عُمر؟

أتنهّد:

– بُكرا.

– طيّب خلاص. بُكرا تقابلها وتسألها مين دا، وركبت معاه ليه؟ بس تسألها بعد ما تردّ عليك في موضوع الجواز.

لا أردّ، لا أجد في نفسي قدرةً على أيّ جدال، فأكتفي بالصمت بينما يقول واحدٌ قاعدٌ في رأسي: "ماشي يا حاج، ماشي، سأسألها غداً، ولكن، قُل لي، كيف سأعيش إلى الغد؟".

—38—

انفجارٌ ثانٍ

الفضيحة الكبرى

أصل إلى الشغل مبكّراً، قبل موعدي بثلاث ساعات، لا أفكّر إلّا فيها وفي نصيحة الحاج كرم. أطلب من عم محمود كوبّاية شاي بالليمون، ثم أدخل إلى مكتبي. أشغّل الكومبيوتر بشكل آليّ بينما أتأمّل مكتب ماركو الخالي بشكل يكاد يكون متواصلاً. أشعل سيجارة وأخفّ إلى صالة التحرير. نفس الوجوه تقبع أمام نفس الأجهزة. ينقرون على نفس الأزرار في لوحات المفاتيح عينها. ألقي نظرة عابرة على ساقي هالة جميل. أسلّم على سالي عودة وأشيد بموضوعها المنشور في العدد الأخير من الجريدة. إلا أن سالي تبدو مكفهرّة، لا تبتسم لإطرائي. أتجاهلها مقرراً الاحتفاظ بروقان بالي، أتركها وأمضي إلى القسم الرياضي. جيهان ترميني بنظرات تحمل ابتسامة كريهة وبلهاء. ما الذي دها الناس على الصبح؟ أتجاهلها هي الأخرى وأصل إلى أنس عبّود، الذي ما إن يراني حتى يفتح صفحة وورد ويكتب في رأسها "عاجل وحصري" ثم ينقر على الأزرار. أتركه هو الآخر لانشغالاته. كلّما اقتربت من قسم الديسك

تتسارع نبضاتي، أطلّ على معتزلهم، كلّهم هنا، ونُورا وسطهم منهمكة في توضيب موضوع ما. أشعر بقلبي موشكاً على الانفجار، فأترك صالة التحرير قبل أن يراني أفراد الديسك، وأرجع لاهثاً إلى مكتبي، أغوص في كرسيّ وألتقط أنفاسي، أحاول ترتيب الكلمات التي سأقولها لنُورا. يرنّ الموبايل، رقم اللواء على الشاشة، أشتمه في سرّي ثم أرد فيأتيني صوته صارخاً:

– إيه اللي انت عملته دا يا أستاذ؟

– إيه اللي أنا عملته معاليك؟ خير؟ أنا مش عارف حضرتك بتتكلم عن إيه!

– خروف طبعاً. نايم على ودانك... اتفضحت يا أستاذ... كل الورق اللي كتبتهولي مرفوع على الفيس بوك.

للمرة الأولى منذ التحاقي بالمؤسسة وتعاملي مع اللواء، أقفل الخط في وجهه غير مكترثٍ بغضبه المتوقّع. بلهوجة أفتح الجهاز وأجد لنفسي وضعية جلوس مريحة تقينيي ألم الناسور الذي انتفض بغتة. أُسرع إلى الفيس بوك فأجد هيام الشورى ترفع صورة من التقرير الذي كتبته عنها وقد كتبت تعليقاً عليه: "الدنيا مليانة عصافير... بس كله كوم والأستاذ دا كوم. للأسف أغبى حتى من نموذج محفوظ عجب". بعدها أجد تقاريري عن سامح عطوة، محمد كرم، ماركو عادل... وكل التعليقات المكتوبة من روّاد الموقع تحمل اسمي واسم اللواء واسم رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير. لا أفهم كيف وصلت هذه الأوراق ليد من سرّبها؟ هل تم اختراق مكتب اللواء؟ يا للفضيحة!

أتجاهل رنّات الموبايل التي تحمل جميعها اسم اللواء واسم رئيس التحرير التنفيذي. بعد دقائق تبدأ المواقع والبوابات الإخبارية في تناقل الخبر بعناوين مختلفة: "بالصور والمستندات: رئيس تحرير "المواطن" يدير جريدته بالمخبرين". و"الأمنجية" يحكمون جريدة "المواطن"، و"بعدما أفلت من إسقاط عضويته البرلمانية... رئيس تحرير "المواطن" يواجه فضيحة جديدة". والأدهى من ذلك كلّه هو البورتريه الذي كتبه سامح عطوة في زمن قياسي، ونشره على أحد المواقع الإخبارية بعنوان: "عُمر عيّاش... عصفورة لنقل

الأخبار أم بطريق مترهّل؟".

عند هذا الحد، أقفل الكومبيوتر، وأقفل موبايلي، ألمّ أغراضي ثم أنطلق خارجاً من المؤسسة. أستوقف أول تاكسي وأهرب إلى البيت.

***

كفّاي متعرقتان، أشعر بخواء في ركبتيّ وساقيّ، رعشة في المعدة، وسخونة في أذني. النعاس يمنحني دقائق ثم ينسحب تاركاً مكانه للأرق والقلق. أقوم من سريري بعد محاولاتي اليائسة للنوم، والتي انتهت بصداع سببته الغفوات المتقطّعة التي سقطت فيها. أعتدل على الفراش. أشعل سيجارة. ثم أقوم لأجهّز كوباية شاي بالليمون. صور التقارير والتعليقات المتدفّقة تحتها لا تغادر رأسي.

أفتح الموبايل فأجد عشرات المكالمات المتراكمة. رسالتان من اللواء واحدة تقول "افتح الموبايل" والثانية تقول: "مين بيدخل المكتب عندك غير محمود الساعي؟". عم محمود؟ لا تسعفني دماغي في التفكير، فأواصل قراءة باقي الرسائل، رئيس التحرير التنفيذي يقول: "انتا فين؟ تعال عايزين نتكلّم". وأخرى من نُورا تقول: "قلقانة عليك. طمّني عامل إيه؟" وثالثة من بطّة: "ماما قلقانة عليك، اتصلنا كتير وموبايلك مقفول. كلمنا ضروري". أرمي الموبايل على السرير وأسكب الماء المغلي في الكوباية، أُسقط فيها كيسين من الشاي، ثم أعصر نصف ليمونة. آخذ مشروبي وأتّجه إلى اللابتوب لأرى التطورات على الفيس بوك.

سواد.

أرى السواد كله محيطاً بي، بعض روابط الأخبار الخاصة بالتقارير حققت أرقام مشاهدة تتجاوز النصف مليون. كما تمّت إعادة نشر تلك الروابط بأعداد مهولة، تحمل عناوين قاسية جداً ومهينة كلها بلا استثناء تمسّ شرفي وكرامتي وتتناولني أنا وأمي وعائلتي بشتائم مبتكرة من تلك التي يبرع المصريون في نحتها. صحفيون ونقابيون وفنانون وكتّاب وبعض الممثلين المغمورين، بالإضافة إلى جمهور نادي الزمالك كاملاً، وخاصة زمرة "الفارس الأبيض"

التي انتسب لها محمد كرم. كل هؤلاء يعلنون أمامي، في تعليقاتهم، ومقالاتهم، وحتى في بيانات رسمية، موقفاً عدائياً مني. على أن الكلمة الأكثر انتشاراً والمشتركة بين غالبية التعليقات هي: "العرص".

أقفل الفيس بوك وأتصل باللواء الذي يرد عليّ سريعاً. يبدو كما لو كان مشغولاً في خضم اجتماع ما، غير أنه ينتشل نفسه من مشاغله ويمنحني دقيقة من وقته، يقول بصيغة آمرة إنني سأنكر كل شيء، وإن التقارير مكتوبة بالكومبيوتر وبالتالي لا توجد جهة شرعية تستطيع إثبات نسب تلك التقارير التي لا تحمل اسمي ولا اسم اللواء. إلا أنها تشير صراحةً إلى رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير في أكثر من موضع، كما تشير ضمناً إلى موقعي كمشرف على صفحة النصوص والثقافة. يأمرني اللواء أيضاً بألا أذهب إلى الشغل الأيام القادمة، وأن أشتري خطّاً برقم جديد للموبايل وأرسل رقمي الجديد له في رسالة. ويؤكّد أنه سيمرّ عليّ في البيت الليلة أو في الغد على الأكثر. وآخر معلومة يبصقها اللواء في وجهي تنصّ على أن ماركو هو من سرّب كل تلك التقارير، وأنه لم يظهر في المؤسسة منذ تمديد إجازته الأخيرة.

ماركو؟

أضرب كفاً بكف بينما أحاول استعادة كل التفاصيل المتاحة في الذاكرة عنه. منذ تشاركنا في ذات الحجرة، والأوقات القليلة التي نجتمع فيها هناك، وصولاً إلى تكليف اللواء بتتبّعه، هل استطاع ماركو أن يفتح جهازي في غيابي؟ لا أعرف. تختلط عليّ الأفكار، كنت أحسب أن الاختراق جاء من مكتب اللواء نفسه. ولوهلة شككت في عم محمود الساعي والبيصي عامل البوفيه في الطابق الخامس. لا أعرف من أين أكلت القفا. أعاين الفيس بوك مرة أخرى، المشاهدات آخذة في الزيادة، أستطيع أن أقول إنني في هذه اللحظة بالذات نجم السوشيال ميديا.

أترك الفيس بوك يغلي ويفور، وأرجع لأفحص الموبايل المضبوط على الوضع الصامت. عشرات المكالمات والرسائل، أرقام أعرفها وأرقام لم أرها من قبل. أقفل الموبايل وأفكّه لأستخرج الشريحة كما نصّت تعليمات

اللواء. أرتدي ثيابي استعداداً للنزول لشراء خط جديد. أشعل سيجارة وألقي نظرة متعجّلة على الفيس بوك قبل النزول. خبر جديد في "بوابة الأهرام" عن إحالتي للتحقيق في لجنة الشباب بمجلس الثقافة والفنون التابعة لوزارة الثقافة على خلفية التقارير المسربة. أقول لنفسي: "حتى هؤلاء الحقيرون يزايدون، عموماً استقالتي ستصلهم صباحاً قبل أن يفكّر أي كلب منهم في مساءلتي".

***

بعد الواحدة منتصف الليل بقليل، يصل سيادته برفقة محمد عوض، الذي يتولى قيادة سيارته. يرفض اللواء أن أضيّفه أيّ شيء، يقول إن زيارته لن تطول، يشعل سيجارة ويبدأ في توجيه الأسئلة:

- إنتا في حاجة بينك وبين محرّر اسمه محمد منصور؟
- أبداً... هو إحنا آه بنسترخم بعض، بس مفيش بيني وبينه موقف.
- وهيام الشورى؟
- مفيش أي حاجة غير لما حضرتك طلبت مني أتابعها.
- وموضوع الحشيش القديم بتاع سامح عطوة؟
- آه.
- سامح عطوة بقا كاتب في مقالة إنك فبركت عنوان المقالة اللي كان كاتبها عن وزير الثقافة اللي مرفقة بالتقرير.
- ...
- أنا عارف إنك عرص.

يشعل اللواء سيجارة، ثم يشرح: عن طريق معارفه تتبّع الحساب الأول الذي رفع الصور، رقما آي بي ظهرا، واحد منهما يخص موبايل في القاهرة، والآخر يخص هاتف أرضي في شبرا، بالتحديد هاتف منزل ماركو. كيف وصل ماركو إلى الأوراق؟ لا أحد يعرف. احتمالات كثيرة مطروحة، عن طريق محمد

منصور، أو جيهان اللذين حاولت استدراجهما للتحدث عنه، أو عن طريق جهاز الكومبيوتر في حجرتنا المشتركة، أو ربما عن طريق واحد من عشرات المعارف المشتركين بيني وبينه.

أرتاح كثيراً لأنه لم يقل اسم نُورا، هذا ربما يعني أنه لم يفطن إلى طبيعة العلاقة بيننا.

يطلب اللواء أن أكتب استقالتي. يمتقع وجهي، فيقول إن ورقة بفصلي من الشغل ستعلّق غداً لتهدئة الرأي العام في المؤسسة وخارج المؤسسة. ينظر لي بتمعّن، أرتعش، قلبي ينبض بهمجية، يحاول اللواء طمأنتي، ويؤكّد على أنه لا يتخلّى عن رجاله، حتى الأغبياء منهم مثلي. يصرّ اللواء على تقريعي بشكل متواصل. وأنا أكتم داخلي غضبي وحزني وقهري. يقول معاليه إن استقالتي ستُحفظ لفترة حتى تمرّ الهوجة ويستطيعوا إيجاد صيغة ما لإعادتي إلى موقعي. أو في أسوأ الأحوال انتدابي في مؤسسة إعلامية أخرى من تلك التي يديرها أصدقاءُ له ولرئيس التحرير التنفيذي.

يضبط اللواء توقيت كلامه بدخان سيجارته. ينهي تعليماته في نفس الوقت الذي يطفئ فيه العقب في المنفضة. ينهض فينهض فوراً محمد عوض الذي يبدو كحارس شخصي وتابع مخلص يشبه الآلة الصمّاء. أتجه صوب الباب لأفتحه لهما وأودعهما، إلا أن اللواء يذكّرني بكتابة استقالتي. أتجه للغرفة وعلى مكتبي بقلم فرنساوي أسود أكتب استقالتي في سطر ونصف وفقاً للصيغة التي أملاها اللواء: "السيد رئيس التحرير التنفيذي... أرجو من سيادتكم التفضّل بقبول استقالتي من مؤسسة المواطن نظراً للحملة الشرسة التي أتعرّض لها دون وجه حق. عُمر عيّاش".

أناوله الورقة، يقرأها بسرعة ثم يدسّها في جيبه وهو يقول مودّعاً:

– يُستحسن تِخفا. روح بلدكم.

لا يترك لي أيّ فرصة لأقول إن ليس لي بلد، ويمضي، يتبعه محمد عوض، كظلّه.

—39—

انفجار ثالث

انتقام الرجل الميّت

بسبب سرعته الهوجاء، تنشب مشادّات بين السائق والركّاب. أحاول أن أتجاهلهم، وأدس السمّاعتين في أذني، إلا أن ذلك لا يمنعني من التفكير في ما جرى، وفي التطورات السريعة في الأيام الأخيرة، بدءاً بتقاريري المسرّبة، مروراً بالهجوم العاصف ضدّي في المواقع وصفحات التواصل الاجتماعي، وتوجيهات اللواء بالابتعاد عن المؤسسة، وصولاً إلى نُورا التي لم أتواصل معها منذ أيّام ولم أتلقّ منها رداً، بسبب الظروف ربما، وانتهاءً بالحاج كرم الذي رحّب بي عندما هاتفته، لأطلب منه المبيت عنده ليومين. في تلك المكالمة، ظنّ الحاج بدايةً أنني تلقّيت رفضاً مهيناً من نُورا، قبل أن أنفي له مسألة تلقي أية ردود أصلاً، سلباً أو إيجاباً، نظراً لمستجدات ومشاكل في الشغل. وهأنا في الطريق الصحراوي، بين الجيزة والفيوم، للمرة الـ.. لا أعرف، أواصل محاولاتي للتشبث بالموسيقى التي تعزلني عن مناكفات السائق والركّاب، وعن الموسيقى الشعبية المزعجة التي يشغّلها الأسطا في مملكته الحقيرة.

لماذا يحدث كل هذا؟

أفتح الفيس بوك من الموبايل، وأقوم بجولة، فأجد جيهان أبو زيد وقد نشرت صورة لقرار مجلس الإدارة بقبول استقالتي، مع تعليق: "استقالة؟! دا يستاهل الحرق". ثم قائمة طويلة من التعليقات القاتلة:

أنس عبّود: تحسبه موسى يطلع فرعون.

زينة عتريس: معقول عيّاش يعمل كدا؟

عصام الأسيوطي: عرص.

هيام الشورى: يعمل كده وأبو كده... أنا مش راضيه أتكلم.

باسم نانو: هو إيه اللي حصل يا شباب؟

رضا الخواجة: أمنجي معرّص.

محمد منصور: كنت فاكره هيترفد.

إيمان فرغلي: !!!

منى فايز: الرجالة ماتت ف الحرب.

سامح عطوة: الشخص دا كان سبب في قطع رزقي من مكان أخلصت في عملي له، والجزاء من جنس العمل.

سالي عودة: إحنا بقينا فُرجة لبقية الجرايد.

دعاء صلاح: إمسك عصفورة.

زياد محمدين: همّ وانزاح.

هالة جميل: He was weird.

نُورا جابر: أنا مصدومة من اللي حصل !!

محمود جمال الدين: آه يا أمنجي يا "خَوَن"... يعني خاين وخَوَل في نفس الوقت.

لطيفة آيت لقمان: لا أفهم. لماذا استقال الأستاذ عيّاش؟

مؤيّد ممدوح: مش مصدق الحوار ده من أوله لآخره. عمر راجل طيب ومحترم.

محمد شفيق: حاسس بإيه وانتا مفضوح يا طابور يا خامس؟
عمرو راضي: يا أستاذه لطيفة آيت لقمان، الأستاذ عيّاش اللي بتسألي عن سبب استقالته بيكتب تقارير ضد زمايله لصالح الأمن. وفي أكتر من زميل اتطردو من الشغل بسبب افعاله الخسيسة دي.

أكتفي بهذا القدر من القتل بالكلمات، وأغلق الصفحة، أضع الموبايل في جيبي وأسرح مع كثبان الطريق، الطريق الذي يقودني الآن بالتحديد لبيت الرجل الذي كتبت ضد ابنه تقريري الأول! أمسك الموبايل مجدداً وأفكّر في الاتصال بنُورا، التي لم تعاود الاتصال بي، وانضمت بسهولة إلى جوقة الصارخين في وجهي. نُورا، التي سرقت فلوسي ثم سرقت قلبي تتنافخ شرفاً وتهتف معهم ضدي... آه يا عالم وسخ. أترك الموبايل وأقرر تجاهلها بالقدر الذي تتجاهلني به.

أعاود فتح الفيس بوك، فينسكب الخراء مجدداً على رأسي. القائمة تطول وتطول، والسبّابون يتكاثرون انشطارياً. كلمات أخرى الآن تزاحم "العرص" على صدارة أكثر المفردات انتشاراً: "الأمنجي"، "الجاسوس"، "أبو كِرش"، "الغبي"... أقفل الصفحة مجدداً، ثم أفتح خانة الرسائل النصّية وأكتب لنُورا متجاهلاً قراري بتجاهلها: "أنا مظلوم". أرقن الرسالة المكوّنة من كلمتين لا غير ثم أضغط زر الإرسال، أتأكّد من وصولها، ثم أفتح صفحة جيهان أبو زيد لأواصل حرق دمي، بقراءة التعليقات، بحثاً عن شيء لا أعرفه. انتهى الأمر، جميعهم ضدي، المتشككون والمخالفون لا يتجاوزون نسبة واحد بالمائة. يرن موبايلي، رسالة من نُورا: "لازم نقعد ونتكلم يا عمر". أكتب فوراً: "كنتي بتعملي إيه مع ماركو في عربيته من كام يوم؟".

تدخل سيارة الميكروباص إلى محافظة الفيوم، يتأهّب السائق لدفع مبلغ للكارتة، أضع علبة السجائر ونظّارة الشمس في الشنطة الصغيرة التي أحضرتها معي، يرن الموبايل، فأتناوله سريعاً وأقرأ: "وعايزني ما أصدقش إنك كنت بتراقب زمايلك وتتجسس عليهم؟". نصل إلى الموقف، ويترجّل الركّاب، أكتب رسالة أخيرة قبل النزول من السيارة: "إنتي مش مصدقاني؟".

أنزل من السيارة مع النازلين، حاملاً الشنطة بيد، قابضاً بالأخرى على الموبايل، الذي لا يرنّ. أركب سيارة متّجهة إلى إطسا، والموبايل لا يرنّ، أقوم بجولة أخرى على الفيس بوك وأبتلع المزيد من الكلام المسموم، والموبايل لا يرنّ، أصل إلى وجهتي، وأواصل منها إلى قرية الغرق، والموبايل وكأنما حلف بأغلظ الأيمان ألا يرنّ. نُورا لن ترنّ، صوت تنبيه الرسائل لن يرنّ...

أبدّل الموبايل إلى اليمنى والشنطة في اليسرى، وأواصل السير في دروب القرية، فجأة يرنّ الموبايل، بلهفة ألقي الشنطة على الأرض وأفتح جراب الموبايل، اسم الحاج كرم على الشاشة، أقول لنفسي: "يا ليتها نُورا"، ثم أرد على الحاج وأقول إنني على بعد دقائق من البيت، فيقول إنه في انتظاري. أقفل الموبايل مجدداً وأتناول الشنطة من على الأرض ثم أواصل السير. هل باعتني نُورا؟ أفكّر، هل تصدّقهم دون أن تسمع مني حتى؟ أليس لي عندها رصيد من الغفران، ألا تدين لي بذلك؟ الحاج كرم يَلُوح بجلبابه الأبيض من بعيد. أتناسى نُورا وأُلوّح له بيدي القابضة على الموبايل، فيلوّح لي، أضع الموبايل في جيبي وأغذ الخطى. الحاج يقف بهامته العالية واضعاً يديه خلف ظهره، مسنداً عصاه إلى الجدار. أمد يدي لأصافحه، فيبقى على وضعه، يداه خلف ظهره، ونظرة جامدة تكسو وجهه، فأعرف، دون أي كلمة، أن الفضيحة وصلت إلى هنا، وأنه عرف بتقريري ضد محمد، وأنني كنت سبباً في طرد ابنه الميّت من وظيفته. أعرف أيضاً، يقيناً، في هذه اللحظة بالذات، أن بعض الموتى، يستطيعون الانتقام حتى وهم في قبورهم...

—40—

الإقامة الجبرية

لم يعد الجلوس بشكل عمودي ممكناً، الوجع ينهش موضع الجراحة. المسكّنات لم تعد حلاً، يتوجّب عليّ أن أراجع الطبيب، ليفحص الجرح ويقف على حجم الالتهابات. أقوم من رقدتي على جنبي، أغلي الماء لتجهيز كوبّاية الشاي. حتى اللحظة لا أزال صامداً على قراري، لم يكسرني الفضول منذ استيقظت، ولم أدخل إلى المواقع لأتابع آخر تطوّرات التقارير المسرّبة. ومنذ الصباح اخترت رواية لأقرأها، عساها تشفطني من هذا البؤس، أو تشفطه منّي.

الرواية اسمها **كيف أصبحت غبياً؟** لمؤلّف فرنسي اسمه مارتن باج، يقول مطلعها: "لطالما بدا لأنطوان أن له عمر الكلاب. في السابعة من عمره كان يشعر بأنه منهكٌ كرجلٍ في التاسعة والأربعين، وفي الحادية عشرة كانت له خيبات رجل عجوز في السابعة والسبعين. اليوم وهو في الخامسة والعشرين، يقرر أنطوان أن يكفّن دماغه بكفن الغباء، أملاً في حياة هادئة بعض الشيء. وقد تأكّد لأنطوان في أغلب الأحيان بأن كلمة الذكاء هي التي تعبر عن حماقات أُحسن بناؤها وزُيّن لفظها"... منذ السطور الأولى أشعر بالتّماس مع الرواية، فأسرح في صفحاتها، وأتابع الرجل الذي عانى من فجوات زمنية اكتنفت عمره،

ووجد راحته في الغباء. بين الحين والآخر أثني طرف الصفحة التي وصلت لها، وأغلق الرواية لأسرح في الحال الذي وصلتُ له، أو أقوم لأجهّز كوبّاية شاي أخرى وألف سيجارة، بينما أفكّر في أمي التي ستصل بعد أيّام مع زوجها. أخشى أن أتصادم معه، أخاف أن أرى منها ما لا أتوقّعه، لن أتحمّل أن أراها تتغنّج أمامه في هذه السن... هذا عدا عن إلحاحها المنتظر في موضوع زواجي، والأسئلة التي لم أؤلّف لها إجابات بعد، عن العروس الأرملة التي اخترتها، والتي تقدّمت لها، وكيف كان ردّها...

لماذا يا نُورا؟

يهفُّ الحاج كرم على بالي، لو أن الأمور تمضي في مسارها الطبيعي الآن لذهبت إليه وطرحت عليه همّي، لكنّي، في هذه اللحظة، لا أتذكّر منه سوى نظرته وهو يقف جامداً أمام بيته ليمنعني من الصعود. لا تؤلمني الصفعة التي طرقعت على صدغي، لا تؤلمني إهانتها حتى، على الرغم من أنها كانت أمام عدد غير يسير من أهالي القرية، ما يؤلمني حقاً هو عتابه الذي سبق الصفعة، سألني: "كيف أستضيف من خان ابني؟" حينها تمنّيت أن أتحول إلى شجرة ليمون أخرى في الغيط. قال أيضاً إنه عرف بعدم وجود صندوق زمالة تكافلي، وإن المظروف الأبيض مطلع كل شهر كان من مالي الخاص.

أنتهي من لفّ السيجارة التي ملأتها بالكثير من الحشيش، أشعلها، أفتّش عن روشتة الدكتور، أنقل رقم العيادة وأتصل به لأحجز موعداً. عليّ الاكتفاء هذه الأيام بالجروح المعنوية، أما الجروح الأخرى، الحقيقية، التي تنزف دماً، فالطبيب كفيلٌ بها.

***

قبل أن تنقضي ثمان وأربعون ساعة، أخرق عهدي مع نفسي، وأفتح الفيس بوك، فتخرقني صفحة جيهان أبو زيد بالصورة التي لم أكن أتخيّل أن أراها يوماً: "قرّر مجلس التحرير تعيين الزملية نُورا جابر رئيسة لصفحة الثقافة والنصوص"، مع

تعليق: "نُورا شاعرة مميزة وصحفية شاطرة وتستاهل كل خير...".

تنهال التعليقات المهنّئة لنُورا، وجيهان تدور في البوست وتجامل كأمّ العروس، وأنا أتابع، متّكئاً على جنبي للهروب من وجع الناسور، مملكتي المحتلّة، التي خُطِفت من بين يدي في رمشة عين. ماركو عادل أيضاً يبارك، بمنتهى الصلف والوقاحة، فترد عليه نُورا بنفسها: "الله يبارك فيك يا ماركو... ومبروك ليك انتا كمان مكانك الجديد في جريدة الخبر".

أشعر بالذهول من التطورات السريعة، أحاول الاتصال بها فأجد أن رقمها خارج الخدمة! أشعر وكأني جنرال أحيل للتقاعد ولبس البيجامة، ووُضِع قيد الإقامة الجبرية. متى حدثت كل هذه الأشياء ومن رتّب لها؟ من اختار نُورا لتخلفني في إدارة الصفحة؟ كيف لم أشمّ خبراً بمؤامرة حيكت ضدي؟ هل لنُورا دور في كل هذا؟ يجب أن أسأل اللواء في أقرب فرصة، أقول ذلك لنفسي، بينما أسعل، بسبب نَفَس الحشيش الثقيل الذي يشرخ حلْقي.

—41—

عندي سؤال

لا يفاجئني الدكتور عندما يقول إن الناسور ارتجع. "أهلاً بالغالي" هكذا أرد عليه وهو يؤكّد على ضرورة إجراء جراحة أخرى لاستئصال الخلايا المتضررة، وأن جسمي قابل لتكوين الناسور، وأنني يجب أن أخفض وزني، كما يجب أن أحمد الله لأنه الناسور العصعصي وليس الناسور الشرجي... أقاطعه وأطالبه بألا يواسيني، فأنا أعرف هذا المرض جيداً، وأعرف سخافته وأوجاعه... لقد عانيت منه وأنت نفسك يا دكتور من شرّط مؤخرتي وحفر فيها ممرات وخنادق، لا تواسِني يا دكتور، يبدو أن نُورا كانت محقّة عندما قالت إن طيزي هي نقطة ضعفي، وهي منذ فترة تنهمر عليها البعابيص، البعابيص المعنوية تؤلم أيضاً يا دكتور، والله إنها تؤلم وتصرخ ولها نفس رعشة نظيرتها الفيزيقية... أنفضُ الصوت الغائر في رأسي، وأنتبه على الدكتور وهو يسألني عن الموعد الذي اخترته للجراحة. أقول:

– الخميس الجاي يا دكتور، أنا ورايا شغل وجرنال مش هيستناني وعايز أخلص.

***

"يبقى الوضع على ما هو عليه"، هذه الجملة التي يصفعني بها اللواء في كل مكالمة، لأن الأوضاع لم تستقر بعد، تغييرات عديدة حصلت، منها عودة هيام الشورى وعمرو راضي، وترقية نُورا جابر ومحمد منصور، والأدهى، أن أصواتاً في مجلس الإدارة تطالب بفسخ التعاقد مع شركة الخدمات الأمنية التي يديرها اللواء، حفاظاً على عضوية رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير في البرلمان.

لا يعطيني اللواء إجابة شافية حول نُورا وما إذا كان لها دورٌ في ما حصل، يكتفي بالقول بأنّ المؤسسة تشهد وضعاً سائلاً، وأن التغييرات الحاصلة تقول بأن هناك تحالفات تقام وأخرى تنفضّ، ويبدو أنّ تحركاتٍ كثيرةً لم تكن مرصودة على راداره، كل ما يستطيع التأكيد عليه هو أن محمد منصور، وآخرين، نبّهوا ماركو لسعيي خلفه، وأنّ هذا الأخير احتاط بشكل أو بآخر ووجّه ضربته الاستباقية المزلزلة. لكن كيف وصل للورق؟ لا أحد يعرف.

عند هذا الحد، أقول للواء:

– بس أنا عارف وصل له إزاي. أو شاكك بالأحرى.

– إزاي؟

فأحكي له عن علاقتي بنُورا، أكشف آخر أوراقي، أوراقي التي لعبت ضدي ولم تلعب معي. وبعد أن أنتهي، أبتلع طوفان من السباب والإهانات التي يكيلها لي اللواء، يصفني بالمرخي والعرص والحَيْحان. أبتلع كل ذلك، وأقول لنفسي إنني لم أرد عليه وأنا في موضع قوة فكيف أرد عليه الآن وأنا شبهُ كسيح؟ أصبر على غضبه العاصف، فقط لكي أصل لغرضي في نهاية المكَالمة: أخبره أن موبايلها مقفول، وأطلب منه أن يتحرّى تورّطها في الأمر.

—42—

لو كنتُ قُنْدُسًا

الآن، أستطيع القول بمنتهى الثقة واليقين، إنني الشخص الأول الذي يعاني من الصداع في نصفه السفلي، لا سيما وقد تلاشى تأثير المخدر النصفي. كل الشرايين والأعصاب والعضلات الموجودة بين فتحتي الإخراج، تعاني من الوجع السافل، الوجع الذي يجعل الواحد يرقد على جنبه ككلب نافق، ضامّاً ساقيه إلى بطنه...

الدموع ليست اختياراً، وليست حلاً، الدموع تسيل لوحدها، دون تدخّل منّي، والوجع لا يكتفي بمكان الجرح، بل يسرح في مناطق مختلفة من نصفي السفلي، ليضربني بنبضات كهربائية موجعة، ويلغي مفعول المسكّنات.

الفتاة من الصيدلية القريبة، والتي سبق لها أن تولّت مهمة التغيير على الجرح لأيام قليلة في المرة الأولى، تعاين جراحتي الجديدة الطازجة، تدعو لي بالشفاء ثم تطلب أن ترفع أجرتها، وتقول إن الأسعار نار، وإنه لا شيء يبقى على حاله. وأنا أنصاع صاغراً. أقول: "اتفقنا"، فتقول إنها ستتدبّر لي نصف شريط ترامادول، لأنه المسكّن الوحيد الذي سيتكفّل بإخراس أزيز الجرح الملتهب. تنزل إلى صيدليتها، تشتري البيتادين والشاش والقطن والمضادات الحيوية الموضعية

والأقراص، تشتري قفّازات طبّية وبكرات مناديل، ثم تعود. أتحامل على وجعي وأنهض لأفتح الباب، أُدخلها وألحق بها إلى الغرفة، لنشرع بعدها في مراسم الإذلال، مراسم الاستعباد ولحس الملاءة، ولحس الأرض، الموعد الرسمي للانبطاح، وتصويب مؤخّرتي، بكل جروحها صوب السماء. تاركاً هذه اليافعة السمراء، تفعل بها ماتشاء، تدس فيها أشياءَ وتسحب منها أشياءَ أخرى.

بعد انتهائها أطلب منها أن تناولني الأوراق والقلم من مكتبي، ثم أعطيها أجرها وأنبّه عليها بخصوص موعد غيار الغد. تنصرف، تصفق الباب خلفها، أتناول الأوراق، وأشرع في رسم جدول زمني من أربعين خانة، وأكتب في رأس الجدول: "الغيار الأول – كلاكيت تاني مرّة".

على وضعي، أقلب الورقة، وأكتب في ظهرها:

"الغريب أن العالم في الخارج مستمر، وكأن عمر عيّاش، لا شيء على الإطلاق!".

أشرد لثوانٍ ثم أواصل:

من حسن حظي أني خُلِقت كاتباً، ولسوء حظي خُلقت إنساناً، ما الضير لو كنت وجدت نفسي بومة أو قندساً؟ تخيّل معي الأمر... قندس كاتب! كان الوضع ليصير أيسر حينها، لأني كنت سأكتب على أوراق الخس، عن مآسي بسيطة وكارتونية: متى يكتمل بناء النفق؟ أسناني أحدّ أم أسنان السناجب؟ كم حبة بندق تبقّت في العرزال؟

لو كنت قندساً كاتباً لما فكّرت في تقطيع شرايني، ولما انشغل بالي بمصير مرشحي في الانتخابات البرلمانية، والجزاءات الإدارية الموقّعة عليّ، وربع الراتب الذي خُصِم لأن مديري ليس في مزاج جيد، وحبيبتي بنت الحرام التي تسكن قلبي مثل ورم سرطاني في مرحلة متأخّرة، الموت به أهون كثيراً من عناء التداوي منه.

أنا أحسدكم يا رفاق، أحسدكم على هذه الصلابة. يستطيع الواحد منكم أن يستغني عن أيّ شيء، كما لو كان يبصق علكة فقدت سكّرها من المضغ. أحسد الناس القنادس، الذين يحفرون الأنفاق في النهار، ويضاجعون نساءهم بالمساء، ويكدّسون الأموال وحبّات البندق في أقبية آمنة وعميقة. كم تمنيت فقط، لو كنت قندساً، أو رجلاً مُتقندساً، أو على أقل تقدير... مجرد حبّة بندق ينخرها الدود دون أن يطالها أدنى إحساس بالألم."

—43—

عوض يُنهي الكلام

عند الرابعة عصراً، توقظني الرنّات على الجرس، أقوم بعُمَاصي وأخطو محنياً ناحية الباب، أسأل: مين؟ فيأتيني صوت مصطفى القهوجي من وراء الباب: "سلامتك يا فنّان، أنا مصطفى، جيت أطّمن عليك". أفتح الباب، فيسفر عن مصطفى بسمرته وملامحه الجنوبية الداكنة. أدعوه للدخول، وأشير صوب الصالون، أقول له:

- إسبقني أنا همشي على مهلي.
- سلامتك يا عمّور.

أتمتم، الألم يمنع الكلمات من الخروج، فتنتهي إلى حشرجات بائسة ومبهمة:

- الـ يهـ لمك

جبهتي تنز بالكثير من العرق، بينما أبحث لنفسي عن وضعية تقيني ألم الجرح. فآلام العمود الفقري التي بدأت تدهمني بفعل الأوضاع المنثنية التي أجلس فيها، أرحم عندي من وخزة ألم واحدة في قعري المشقوق.

يقول مصطفى:

– يا نهار أبيض يا بو عمر، دانتا تعبان ع الآخر، ألف سلامة يا صاحبي والله قلقت عليك. انتا معاك حد يخدمك؟

أهز رأسي نفياً، يضرب كفاً بكف ويحوقل، أستجمع قواي وأقول:

– في بنت بتقف في صيدلية ف الشارع اللي ورانا بتيجي تغيّر لي ع الجرح.

– هو جرح كبير؟

– للأسف آه.

– كام غرزة يعني؟

– مفتوح يا مصطفى... الناسور بيتساب مفتوح.

– سلامة طيزك يا عمّور.

يقهقه ناثراً الرذاذ والتفتفة في محيطه، أسنانه الصفراء تتماهى مع البياض الباهت لجدران الصالة، يقول بين ضحكتين:

– إوعى تزعل يا فنّان دانا بضحّك معاك.

أسأله:

– بس إنتا ماكونتش هنا لما أنا روّحت م المستشفى... إنتا عرفت إزاي؟

– هي هاجر بتاعت الصيدلية... نياهاها.. العيال في الشارع كلهم قلقانين ع الغالية. نياهاهاها.

ألعن دين أم البنت، وأقسم أنني سأمسح بها البلاط، سأجعلها تلحس الجرح... أشخط في مصطفى طالباً منه أن يعقل ويَرْكَز، ثم أشير له صوب البويلر وأرجوه أن يقوم ويجهّز لنا كوبايتين شاي.

***

يقول عوض إن اللواء كلّفه ليتصل بي ويبلغني أن مؤسسة المواطن الإعلامية فسخت تعاقدها مع شركته للخدمات الأمنية، وأن شركة جديدة تولّت بالفعل مهام حراسة المؤسسة، أقول: "معقول بسرعة كدا؟"، فيقول عوض

بلهجة مواسية: "عارف إنك خسران يا أستاز عمر، بس والله كلنا خسرانين يا ساحبي". أسأله عن نُورا جابر، فيقول إنه لا يعرف عنها شيئاً، وإن اللواء لم يبلغه أيّ معلومات عن هذا الموضوع. أطلب منه رقم اللواء، فيقول إن ذلك غير ممكن، لأن اللواء أصلاً سيسلّم إدارة الشركة خلال أيّام لإبنيه، وكليهما ضابط شرطة، والثالث يعمل في النيابة، وأنه ربما سيتقاعد أو يفتح شركة أخرى، لكن الصورة لم تتضح بعد، حتى تايسون وسبيكة والجعفري والآخرون لا يعرفون كيف سيكون مصيرهم بعد شهر من الآن.

يقفل عوض الخط، يقفل على إصبعي، يقفل خط الرجوع. يحزّ في نفسي أنه يرى خسائرنا متساوية، قال "كلنا خسرانين يا ساحبي!". صاحَبَك برص يا بعيد. كيف تتساوى خسائرنا؟ اللواء سيتعاقد مع جهة أخرى، وسيكوّن عصابة هو وأبناؤه أصحاب النجوم والدبابير وسيجرّكم معه. والسمعة؟ طُظ في السمعة، لواؤنا كلب برّي سعران كما تعرف... يقول واحد جالس داخل رأسي: "وانتا بقا قطّ منزلي سمين ومُدلل وسُمعتك ولا شذى البساتين!"... أتجاهله، سأتجاهله يا عوض، سأتجاهل هذا الصوت وأنت تعرف أنني نسمة مقارنة بلوائك، ومقارنة بكم أنتم رجال الأمن. هو الكلب السعران الأكبر، وأنتم باقي أفراد القطيع...

—44—

نائماً على بطني

أعرف أنّ هذه الضوضاء أمام باب الشقّة تخص أمي، أسمع صوتها، أسمع صوته أيضاً، لكن لن أقوم، وهذا آخر كلام عندي. يدور رتاج الباب، ينفتح، وتدخل أمي، أسمعها وهي تلقي السلام على البيت، يدخل في أعقابها زوجها، صوت عجلات الشنط التي تتدحرج في صالة البيت، يصلني مختلطاً بنداء أمي عليّ، أردّ من غرفتي:

– أنا هنا يا ماما ف الأوضة... حمدلله ع السلامة... تعالي.

تقبل أمي مسرعة، أعرف من وقع قدميها أنها تهرول، تظن نفسها بنتاً في السادسة عشرة بنت سعيد عمارة. تعالي يا حاجّة جينفير وفاجئيني. تفتح باب غرفتي، تجدني نائماً على بطني، مُفرشِحاً ساقي، تفتح فمها، وفي ثانية تفرّ الدموع من عينيها، تضع يدها على فمها ويخرج صوتها مرتعشاً:

– مالك يا عُمر؟

أشفق عليها، أسمع صوت زوجها يلقي بالسلام ثم يسألها بلهجته الفلسطينية إن كان في شي؟

أردّ السلام ثم أطالبها بأن تهدأ، أقول بسرعة: "عملت الناسور تاني. إطمّني

ياماما مفيش حاجة تقلِق". يسد رجل لونه رمادي، فتحة الباب، شعره رمادي ولحيته رمادية وعيناه رماديتان، يا زين ماختارتي يا حاجّة، وقعتِ في دونجوان مُسِنّ.

تقول ماما:

- وانتا بقالك كدا أد إيه؟

- تلات أيام.

- ياعيني يا بني

تقولها أمي، ثم تنفجر باكية، يحمر وجهها، وهي تنحني لتربت على كتفي، بينما ينحني منير ليربت بدوره على كتفها ويحضنها، وهو يقول: "تِبكيش يا بيبي". فترتعد أوصالي، ويتشنّج ناسوري منفجراً بالوجع، أطلق صرخة ألم مدوّية وأنا أدفس وجهي في المخدّة.

***

في المساء، وبعد فاصل طويل من الجدل، يرضخ دكتور منير لاعتراضاتي على محاولته لصرف هاجر والتغيير على الجرح بنفسه. الرمادي أصرّ على أنه سيقوم بالأمر بطريقة أفضل من فتاة الصيدلية، لأنه قام بالأمر ذاته مع إثنين من إخوته الستة، وهو نفسه أجرى جراحة الناسور مرتين قبل سنوات طويلة، ولم ترتجع منذ ذلك الحين، أي منذ قرر المواظبة على نزع شعر مؤخّرته تفادياً لتكوّن الناسور!

هل سأتقيّأ؟ أسأل نفسي وأختبرها تفادياً لإحراج تفريغ معدتي على الرمادي.

في النهاية، أتشبّث بهاجر، ويكتفي منير بالإشراف عليها أثناء تطهير الجرح، مستنداً على شهادة الطبّ التي يحملها من إحدى الجامعات الأميركية. يقول وهو يقف بجانب هاجر التي تباشر تطهير الجرح: بالمناديل السويت، أو بالكريمات، لأنو الناسور العصعصي هادا... تتشوّش الرؤية، وتسيح الأصوات. الكلمات تنهمر على رأسي، وأنا ممدّدٌ على بطني، أستمع لهذا الفلسطيني الذي

جاء من آخر الدنيا ليتفرّج على طيزي ويواسيها. تتصاعد سوائل حمضية في حلقي، وتفرّ من عيني دمعة. تهفّ نُورا على بالي، لا يزال موبايلها مغلقاً. أخلع بنطلوني لنباشر عملية التغيير، تمدّ هاجر يدها، أرتعش، أكتم الألم، أعض المخدّة، أجزّ على أسناني، أحاول أن أسرح في أي شيء بعيد... فيومض في رأسي النص القصير الذي كتبته زمان، وكان يقول: "جحيم في الدنيا، جحيم في الآخرة، شكراً، يا رب، شكراً على هذا الحضيض الذي أعيش فيه...".

برنامج "آفاق لكتابة الرواية"

أطلق الصندوق العربي للثقافة والفنون برنامج "آفاق لكتابة الرواية" في عام 2014، ساعياً لدعم مواهب روائية شابة ومواكبتها وتمكين قدراتها الروائية والإبداعية. امتدّ البرنامج على ثلاث دورات، مدة كل دورة سنة ونصف، وتتضمّن كل منها ثلاث ورش عمل مكثفة. أقيمت الدورة الأولى (2014) بالشراكة مع محترف نجوى بركات، بينما أشرف الروائي اللبناني جبّور الدويهي على الدورتين الثانية (2015) والثالثة (2016).

اليوم، وبعد انتهاء الدورة الثانية، يمكن التأكيد أنّ هذه التجربة كانت أكثر عمقاً وتأثيراً ممّا توقّعنا، إذ لا يمكن وصف أثر هذه اللقاءات المكثفة، بما حملته من نقاشات وتبادل آراء بين الكتّاب والمدرّبين، على أفكار الروائيين المشاركين ومشاريعهم. كما لا يمكن تثمين الرابط الإنساني الحميم الذي وُلد وتوثّق بين أفراد لم يلتقوا من قبل، فوجدوا أنفسهم يتشاركون الأحلام والأسرار، الهموم والتطلّعات.

يسرّ "آفاق" أن تكون جزءاً من هذه التجربة الفريدة، وأن تسهم بإغناء المكتبة العربية بخمس وعشرين رواية متميّزة من تسعة بلدان عربية، لكلٍّ منها أسلوبها وصوتها الفريد. بعضها كان أقرب إلى السرد الشخصي، بينما عالجت أخرى مواضيع ذات أبعاد اجتماعية وسياسية، ولكن، على رغم العوالم الخاصة لكل منها، لم تبتعد عن هموم العالم العربي وتساؤلات شبابه وطموحاته التي نقلها كتّاب هذا البرنامج بأسلوب مشوّق وراقٍ.